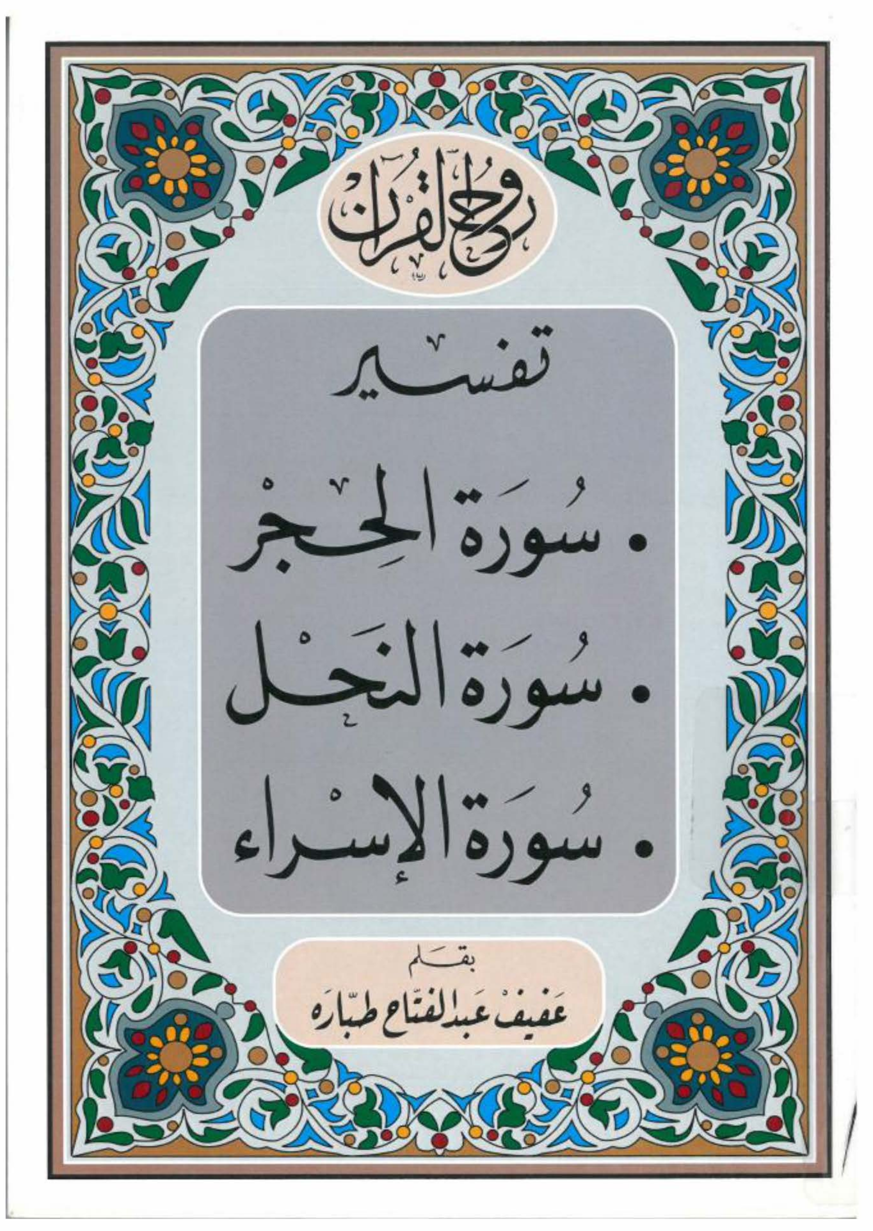
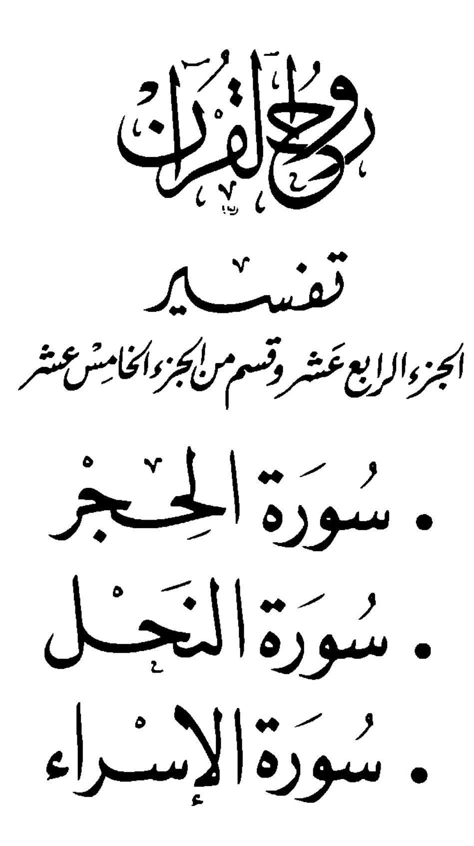


روح القرآن
تفسير
• سورة الحجر
• سورة النحل
• سورة الإسراء
بقلم
عفيف عبد الفتاح طبارة

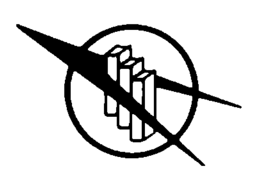


بقلم
عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب: ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٦٦٦٦ - ٨١٢١٧١ - ٨١٢٤
برقياً: ملاين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملاين
بيروت - لبنان



تحذير وإنذار

كل من يقوم بتزوير هذا الكتاب ويشترك بطبعه أو تغليفه أو بيع النسخ المزورة يلاحق بأقصى العقوبة المنصوص عليها في القوانين ويتحمل كل ضرر ناجم عن ذلك.

إن الوكيل الحصري المعتمد لتوزيع وبيع هذا الكتاب في جميع أقطار العالم:

دار العلم للملايين

الطبعة الأولى
أيلول ١٩٩٨

الإهــداء

إلى سماحة الشيخ محمد توفيق خالد رحمه الله

مفتي الجمهورية اللبنانية السابق

وفاء وعرفاناً بالجميل لما أسداه إليّ وإلى إخواني الطلبة من عناية وسهر وعطف وتشجيع في:

الكلية الشرعية في بيروت

التي انشاها ورعاها بجهده وتضحياته، والتي تخرّج منها جلّ المفتين والقضاة والوعّاظ في لبنان.

ولقد خلّف ذرية خيّرة كان لها الفضل العظيم على هذا الوطن منهم الدكتور **محمد خالد** يرحمه الله الذي انشا:

مؤسسات الخدمات الإجتماعية بالأوزاعي

ومنهم الدكتور محمود خالد الذي رعى هذه المؤسسة أطال الله في عمره.

سائلاً الله ان يجزيهم خير الجزاء لما أسدوه من عمل صالح.

عفيف عبد الفتاح طباره

تعريف بسورة الحِجْر

سميت سورة «الحِجْر» بهذا الاسم لما ورد فيها من الكلام عن أصحاب الحجر وهم قوم ثمود، وما أصابهم من هلاك جزاء كفرهم وتكذيبهم للرسول الذي أرسله الله إليهم، والحِجْر هو وادٍ بين المدينة المنورة والشام كان يسكن فيه هؤلاء القوم ولذا سمّوا بأصحاب الحِجْر.

وهذه السورة مكية ـ أي نزلت بمكة ـ وهي تتناول موضوعات شتى منها:

ـ تمني الكفار يوم القيامة لو كانوا مسلمين عندما يرون ما عليه المسلمون من نعيم وما هم مقبلون عليه من عذاب.

ـ بيان أن الله نزّل على محمد ﷺ القرآن، الذي حفظه الله من التحريف.

ـ لفت الأنظار إلى بعض المظاهر الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، كخلقه نجوم السماء، ومدّه الأرض وإرسائها بالجبال، وإنبات مختلف النباتات، وإرسال الرياح لواقح، وإنزال الماء من السماء.

ـ بيان أن مبدأ تكوين الإنسان كان من صلصال من حمإٍ مسنون حيث أمر الله الملائكة بالسجود لآدم بعد تمام خلقه سجود تكريم لا سجود عبادة فسجدوا إلاّ إبليس، فطرده الله من الجنة لتكبره وعصيانه أمره.

ـ تعهّد إبليس أن يغري بني آدم ويضلهم إلاّ عباد الله المخلصين.

ـ ذكر قصة إبراهيم وأضيافه الملائكة الذين بشروه وزوجته بولد وكان يومئذ عجوزاً في سن الشيخوخة وكانت زوجته عقيماً عجوزاً.

ـ ذكر قصة قوم لوط وما أصابهم من هلاك جزاء إجرامهم وانغماسهم في الفواحش، مع ذكر أصحاب الأيكة وأصحاب الحِجْر الذين أهلكهم الله.

ـ نهي النبي محمد ﷺ عن الحزن على المشركين بسبب عدم إيمانهم وتصديقهم بنبوته، مع الوصية له بلين الجانب والتواضع للمؤمنين، وأن يبلّغ ما أمره بتبليغه من الدين إلى قومه، وأن يظل على عبادة ربه حتى يأتيه الموت.

وهناك مواضيع أخرى في هذه السورة سيأتي الكلام عنها.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ
مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ
أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا
بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا
مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾

شرح المفردات

ذرهم: اتركهم ودعهم.

يلههم الأمل: يشغلهم عن طاعة الله.

من قرية: من أهل قرية.

كتاب معلوم: أجل مؤقت لإهلاكها يعلمه الله.

ما تسبق من أمة أجلها: ما تموت أمة قبل الأجل المقدّر لها.

وما يستأخرون: وما يتأخرون عنه.

الذّكر: هو القرآن الكريم.

لَوْمَا تأتينا بالملائكة: لَوْمَا حرف تحضيض وحث مثل هلاّ، أي هلاّ تأتينا يا محمد بالملائكة ليشهدوا أنك رسول الله؟

إذاً: أي حينئذ.

منظرين: مؤخرين في العذاب.

إنذارٌ من الله للكافرين

يستهل الله هذه السورة ببيان مكانة القرآن ومنزلته العليا بين الكتب السماوية:

﴿الٓر[1] تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ أي تلك السورة بعض آيات من هذا الكتاب الجامع لكمالات الكتب السماوية، وتلك السورة أيضاً بعض آيات قرآن عظيم، مبيّن شريعة الله التي ختم بها الشرائع. فالله أطلق على الوحي المنزل على رسوله محمد ﷺ اسم الكتاب، أي الكتاب الكامل في كل شيء، كما أطلق عليه اسم القرآن. والقرآن يحمل معنى الجمع وكل شيء جمعته فقد قرأته. وسمي القرآن بذلك لأنه جمع القصص والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والحلال والحرام، والحِكَم والأحكام، وجمع السور والآيات بعضها إلى بعض.

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِين كفروا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ربما: حرف يستعمل للتقليل تارة وللتكثير تارة أخرى، أي أن الكفار سوف يتمنون كثيراً في الآخرة لو كانوا مسلمين في دنياهم لكي ينجوا من استمرار العذاب الذي يقاسونه في الآخرة، وذلك أن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب في الآخرة ورأى ما عليه المسلم من نعيم تحسّر وتمنى لو أنه كان من أهل الإسلام.

﴿ذَرْهُمْ يأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقد أديت واجبك يا محمد بدعوة الكفار إلى الهدى، ونلت منهم الأذى الشيء الكثير ولم يستجيبوا لك، فدعهم في غيهم يأكلون كما تأكل الأنعام، ويتمتعون بشهوات الدنيا وملاذها، ويشغلهم

---

(١) الٓر: قيل إنها اسم للسورة، وقيل هي أسرار محجوبة هي في علم الله. وقيل إن بدء الكلام بهذه الأحرف وما فيها من غرابة داعية إلى الانتباه واستماع ما يليها مما تحتويه آيات القرآن من الهدى والرشاد. وقيل إن هذه الأحرف تشير إلى تحدي القرآن لمنكريه، ذاك أن القرآن مركب من كلمات ذات حروف كهذه الحروف التي ينظم منها العرب كلامهم كمثل (الر) وغيرها من الأحرف فإن كانوا صادقين في زعمهم أن محمداً قد افترى القرآن فليأتوا بمثله وهم أئمة الفصاحة والبلاغة فإن عجزوا فعجزهم دليل على أن القرآن وحي إلهي.

الأمل عن طاعة الله وعن التزود للآخرة بالعمل الصالح، فسوف يعلمون سوء صنيعهم حين يعاينون عذاب الله. والآية بمجملها تهديد للكفار ووعيد لهم بسوء المصير.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أي وما أهلك الله أهل قرية من القرى بسبب عصيانهم أوامره وتمردهم على رسله، إلاّ ولهذه القرية أجل مقدر وموقت لإهلاكها مكتوب في اللوح المحفوظ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي لا يتقدم هلاك أمة قبل مجيء أجلها الذي حدده الله لهلاكها، ولا يتأخر هلاكها لأي سبب من الأسباب بل يجيئها الهلاك في الوقت الذي كتبه الله لها.

وبعد أن هدّد الله الكافرين العرب بالهلاك شرع يذكر بعض تهجماتهم على رسوله محمد ﷺ: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذي نُزِّل عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي قالوا استهزاء وتهكماً لرسول الله: يا من تزعم أنه نُزِّل عليك القرآن إن ما تقوله أملاه عليك الجنون، وقد أكدوا قولهم: بـ إن واللام، وهما من حروف التوكيد مبالغة في الاستهزاء ﴿لَوْمَا تَأْتِينَا بِالمَلاَئِكَةِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي هلاّ تأتينا يا محمد بالملائكة يشهدون بصحة نبوتك إن كنت صادقاً أنك نبي، أو يشاركونك في إنذارك لنا كقوله تعالى حكاية عنهم أيضاً: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] وقد أجاب الله على اقتراحهم بقوله:

﴿مَا نُنَزِّلُ الملائكةَ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي ما ننزل ملائكتنا إلاّ تنزيلاً مقروناً بالحكمة والفائدة، ولا حكمة في أن تأتيكم الملائكة عياناً ترونهم ويشهدون لكم بصدق رسولنا محمد، لأن الملائكة إما أن يأتوا على صورتهم الحقيقية وعندها فلا يُرون، وإما أن يأتوا على صورة بشر فيلتبس أمرهم عليهم ويظنونهم بشراً حقيقيين ﴿وَمَا كَانُوا إذاً مُنْظَرِينَ﴾ أي وما كان الكفار حينئذ ممهلين ومؤخر العذاب عنهم حين ينزّل الله الملائكة ويصروا على كفرهم، بل يحل عليهم العذاب إذا لم يؤمنوا، لأن

سُنَّة الله في الأمم السابقة أنه إذا أعطى أمة المعجزات التي يقترحونها ثم لم يؤمنوا بعد ذلك استأصلهم الله بالهلاك، وقد علم الله سبحانه أن كفار مكة سيكون منهم مؤمنون وستؤمن ذريتهم لذا لم يشأ الله أن ينزل عليهم ملائكته صيانة لهم من الهلاك.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

شرح المفردات

الذِّكْر: هو القرآن الكريم.

شِيَع الأولين: جماعات الأمم السابقة.

نسلكه: ندخله.

خلت: مضت.

سنّة الأوّلين: طريقة الله وعادته في إهلاك المكذبين.

يعرجون: يصعدون.

سُكِّرت أبصارنا: غشّيت وغطيت ومنعت عن الرؤية والنظر.

قوم مسحورون: قوم أصابنا محمد بسحره.

سلامة القرآن من التحريف

ويتابع القرآن فيبين ما خص الله به القرآن من الحفظ والسلامة من التحريف:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فالله سبحانه يقول: إنّا نحن نزلنا

القرآن عليك يا محمد وإنا نحن لحافظون هذا القرآن من التغيير والتبديل والضياع. والقرآن وصل إلينا متواتراً[١] فقد كانت تنزل الآية أو الآيات من القرآن فيحفظها النبي ﷺ عن ظهر قلب ثم يتلوها ساعة نزولها على المحيطين به ثم يأمر كتبة الوحي بتدوين ما أنزل إليه، كما أن النبي ﷺ كان يحتفظ بنسخة مما كتب في داره. ثم إن القرآن قبل أن يجمع في زمن أبي بكر رضي الله عنه كانت أجزاؤه المكتوبة موجودة عند النبي ﷺ وكثير من الصحابة وكان هؤلاء يتلونه في بيوتهم، ولمّا جمعه عثمان بن عفان أخيراً كان أكثر كتّابه وحفّاظه لا يزالون على قيد الحياة، فكيف أمام كل هذا يمكن أن يتطرق إليه التحريف؟ أما بالنسبة إلى التوراة والإنجيل فقد ضاع أصلهما ودوِّنا بعد فترة طويلة من نزولهما، وهذا مما يفتح باب الشك على كثير من نصوصهما. بالإضافة إلى ما أساء الأحبار والرهبان من تأويلهم لما جاء في كتب الله.

فحفظ القرآن من التغيير والتبديل إلى يومنا هذا برهان قوي على أنه من عند الله.

موقف الكفار من رسل الله

ثم تأتي الآيات مواسية رسول الله محمداً ﷺ بسبب ما يلاقيه من قومه من تكذيب واستهزاء:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً في أمم الأولين الذين يشايع بعضهم بعضاً في الكفر والضلال، والشيع جمع شيعة وهي الفرقة المتفقة على مذهب يتبعونه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي وما يأتي كل أمة رسول

(١) متواتراً: هو ما رواه جمع من الناس عن جمع كثير مثلهم وهكذا إلى يومنا هذا. وهذا الجمع الغفير يستحيل تواطؤهم على الكذب.

من الله لهدايتهم إلاّ كانوا به يسخرون، كما يفعل بك جهال قومك يا محمد فلا تحزن من سخريتهم منك.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ في قُلُوبِ المجْرِمينَ﴾ أي كما أنزلنا من قبل الكتب الإلهية على رسلنا فلم يقبلها قومهم واستهزأوا بها كذلك نلقي القرآن وندخله في قلوب المجرمين من قومك يا محمد ويكون غير مقبول لديهم مُستهزأً به ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لا يصدقون بأن القرآن من عند الله لأن نفوسهم ليس فيها استعداد لتلقي الحق ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ وقد مضت طريقة الله في المكذبين الأولين من الإهلاك والاستئصال بسبب كفرهم. وهذا تهديد ووعيد لهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ السَّماءِ[1] فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرجُونَ﴾ أي ولو فتحنا على هؤلاء المعاندين باباً من السماء ومكناهم من الصعود فيه ورأوا ما فيها من العجائب ورأوا الملائكة ﴿لَقَالُوا إنَّما سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ لقالوا لفرط مكابرتهم: إنما غُشِّيت أبصارنا فلم نشاهد حقيقة الأشياء بل نحن قوم مسحورون سحرنا محمد حتى تخيّلنا ما نراه.

---

(١) باباً من السماء: هذا التعبير يلفت النظر إلى حقيقة علمية ظهرت في العصر الحاضر، فكل من يريد النفاذ إلى الفضاء الخارجي بواسطة المركبات الفضائية والتخلص من جاذبية الأرض يجب أن ينطلق من زاوية معينة وفي مسار معين هما باب إلى السماء، كما أن على المركبات الفضائية خلال عودتها إلى الأرض من الفضاء الخارجي الدخول والسلوك من فتحات وطرائق وارتفاعات معينة وإلاّ بقيت في الفضاء الخارجي أو احترقت قبل وصولها إلى الأرض. وهناك مئات الأدمغة الإلكترونية تصحح سير المركبات الفضائية كلما ضلت عن مسارها.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

شرح المفردات

بروجاً: مجموعات من النجوم.

شيطان رجيم: شيطان مطرود من رحمة الله.

استرق السمع: تلقى خفية ما يسمع من كلام الملائكة.

شهاب: شعلة ساطعة من نار.

والأرض مددناها: بسطناها ووسعناها.

رواسي: جبالاً ثوابت.

معايش: واحدها معيشة، أي المطاعم والمشارب وأسباب الرزق التي يعيشون بها.

بقدر معلوم: بمقدار يعلمه الله وتقتضيه حكمته.

لواقح: ملقحات للشجر أو للسحب.

نحن الوارثون: أي الباقون بعد فناء الخلق.

يحشرهم: يجمعهم يوم القيامة.

من مظاهر قدرة الله التي تشهد بوحدانيته

أمام تعنّت الكفّار وعنادهم توجه الآيات التالية الأنظار إلى ما في الكون من أسرار وعجائب لعلَّ النفوس المكابرة تعمل فكرها فتتعرف على الخالق ومن هنا

تأتي الآيات فتلفت الأنظار إلى السماء وما فيها من مجموعات نجمية تشهد بعظمة خالقها:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ بروجاً: جمع برج وهو في الأصل بمعنى القصر أو الحصن. والمراد بالبروج مجموعات نجمية هي كالقصور أو الحصون تمر خلالها الأرض والكواكب في أثناء دورتها حول الشمس، فكأن هذه المجموعات النجمية[١] كالمنازل لهذه الكواكب السيارة ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي وزين الله السماء بالنجوم والكواكب لينظر إليها الناس معتبرين مستدلين بها على وحدانية الله وقدرته المبدعة. وهنا لفتة إلى جمال الكون، والجمال عنصر فعال للإيمان بالخالق ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ وإن الله سبحانه حفظ السماء ومنعها من كل شيطان مطرود من رحمته ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ ومن حاول من هؤلاء الشياطين أن يتجه نحو السماء ويختلس بعض الكلام المسموع الذي تتداوله الملائكة فيما بينها من أمور الغيب التي أطلعهم الله عليها، لحق ذلك الشيطان وأصابه شهاب[٢] ظاهر فيقتله أو يخبله.

وقد كان الكهان عند العرب يدّعون معرفة الغيب وأن الشياطين تنقل إليهم من أخبار الأرض مما سمعوه في السماء، فلما بعث الله محمداً رسولاً اشتدت حراسة السماء بالملائكة والشهب وتعذر على الشياطين الاطلاع على أمور الغيب. جاء في القرآن حكاية عما يقوله شياطين الجن:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨].

وإن وجود الجن وماهية استراقهم السمع من السماء من الأمور الغيبية التي

---

(١) رصد الأقدمون هذه المجموعات النجمية وأطلقوا عليها اسم: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، العذراء أو (السنبلة)، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت.

(٢) شهاب: يجمع على شهب وهي أجزاء حجرية انفصلت عن الكواكب وجعلت تدور في الفضاء فإذا وصلت إلى جاذبية الأرض اشتعلت وتوهجت باحتكاكها بالغلاف الجوي المشتمل على الأوكسجين الذي يساعد على الاحتراق.

يقررها القرآن فيجب الإيمان بها ولو لم تدركها الحواس البشرية، هذا مع العلم أن العقل البشري يقر بأنه ما يزال عاجزاً عن إدراك كنه كثير من أسرار الكون.

﴿وَالأَرْضَ مدَدْنَاهَا﴾ أي أن الأرض قد بسطها الله ووسعها بحيث تكون صالحة للسكن. ولفظة مددناها يفهم منها كروية الأرض، فأينما نظرنا إلى الأرض وأينما سرنا فيها وفي أي اتجاه وجدناها ممتدة أمامنا في جميع القارات وهذا لا يمكن أن يحدث إلاّ إذا كانت الأرض كروية، فلو أن الأرض مسطحة أو مكعبة أو غير ذلك من الأشكال الهندسية لوصلنا فيها إلى حافة وحيث لم يحصل ذلك فهذا يدل على أن الأرض كروية ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي وخلق الله في الأرض جبالاً ثوابت ﴿وَأَنبَتْنَا فِيها مِنْ كُلِّ شَيءٍ مَوْزُونٍ﴾ الشاهد هنا لفظة (موزون) فإن العلماء الأخصائيين في علوم الكيمياء والنبات أثبتوا أن العناصر التي يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة هي من الدقة بحيث لا يمكن ضبطها إلاّ بأدق الموازين، وعناصر كل نبات تختلف بعضها عن بعض وتتميز من نبات إلى آخر بما تشتمل عليه من المواد النشوية أو السكرية أو البروتينية، فسبحان من خلق كل شيء بحكمة لفائدة البشر والحيوان ﴿وَجَعَلْنَا لَكُم فِيها مَعَايِشَ﴾ وجعل الله في الأرض أسباب المعيشة الميسرة للناس ففيها الحجارة التي يبنون منها المساكن وفيها المعادن المختلفة لحاجاتهم الملحة، والحيوان والطير والأسماك التي يقتاتون بلحومها، وفيها النبات والثمار التي يتغذون بها، والأشجار التي ينتفعون بخشبها ﴿وَمَن لَسْتُم لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ وفي الأرض أسباب المعيشة لمن يكونون تحت كنفكم ـ أيها الناس ـ من خدم وأولاد ودواب وحيوانات وتظنون أنتم المتكفلون برزقها ولكن الله هو الذي يرزقها.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي وما من شيء من الخير عندنا الذي ينتفع به الخلائق إلاّ هو كالخزائن المملوءة بالنفائس من حيث حفظه وتقديمه إلى العباد وفق حاجتهم إليه وليس المقصود من الخزائن حقيقتها فإنه تعالى لا تختزن عطاءاته في خزائن بل الآية فيها أسلوب بلاغي عن طريق الاستعارة التمثيلية ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ

﴿إلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وما نعطيه للعباد إلاّ بمقدار محدد وفق حكمتنا في تدبير الكون.

نعم كل شيء في هذا الكون بمقدار فمثلاً إن نسبة الأوكسجين تحدد عادة في الهواء بنسبة ٢١ بالمئة فلو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ بالمئة مثلاً فماذا يحدث؟ إن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة.

ثم إن إشعاعات الشمس هي بمقدار فلو أعطت الشمس نصف إشعاعها الحالي لتجمدت المخلوقات الحية ولو أنها زادته بمقدار النصف لاحترقت وأصبحت رماداً. هذه بعض الأمثلة من كثير يستلزم الإفاضة فيها عدة مجلدات.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ هذه الآية سبقت ما توصل إليه العلم من أن الرياح عامل هام في تلقيح النبات إذ تنقل حبوب اللقاح الذكرية في الزهر إلى الأعضاء المؤنثة في النبات ليتم بذلك عقد الثمار.

والرياح عامل في تلقيح السحاب الذي يتولد منه المطر، فالرياح هي التي تدأب على تلقيح السحاب بإمداده ببخار الماء وبجسيمات نوى التكاثف لكي يجود السحاب بالمطر. ولكي يحدث تكاثف السحاب بمجرد أن تنخفض حرارة الهواء فإنه لا بد من وجود شيء يحدث هذا التكاثف عليه أي لا بد لكل قطرة صغيرة من الماء من الحصول على ذرة دقيقة من الغبار تتخذها نواة لتتكاثف عليها. والرياح هي العامل الأساسي لكل ذلك ﴿فَأَنْزَلْنَا من السماء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي فأنزلنا من السحاب ماء عذباً لسقياكم وري زروعكم وشرب مواشيكم ﴿وَمَا أَنْتُم لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي إن هذا المطر لم تختزنوه أنتم بل الله هو الذي يختزنه لكم في البحيرات والأنهر والعيون والآبار ثم تتبخر المياه وتنشأ السحب التي تجود بالمطر وهكذا تستمر دورة الحياة على الأرض بالماء.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ وإنا لنحن ننشئكم من العدم ونجعلكم أحياء ترزقون ونحن نميتكم وننزع الروح من أجسادكم ﴿وَنَحْن الْوَارِثُونَ﴾ ونحن الوارثون

لكم ولأموالكم ولكل شيء في الوجود بعد هلاك الخلق ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ ولقد علمنا من سبقوكم من بني جنسكم ممن هلك ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ كما أننا على علم بالمتأخرين ممن هم أحياء أو ممن سيوجدون بعدكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وإن ربك يا محمد هو الذي يجمعهم للحساب والجزاء يوم القيامة إنه حكيم في تدبيره، عليم بأعمال خلقه.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾

شرح المفردات

صلصال: هو الطين اليابس كالفخار الذي إذا نُقِرَ يكون له صوت.

حمإ: طين أسود متغيّر من مجاورة الماء له.

مسنون: مصور على هيئة إنسان.

نار السموم: النار التي لا دخان فيها.

سوّيته: أتممت خلقه وجعلته سوياً وهيأته لنفخ الروح فيه.

رجيم: مطرود من كل خير وبركة.

اللعنة: الإبعاد على سبيل السخط.

عصيان إبليس لربه وطرده من الجنة

ويتابع القرآن فيذكر قصة آدم مع إبليس ليعرف البشر مدى عداوته لهم فيحذروا وساوسه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ قد يراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام أو جنس بني آدم كله تبعاً لأصله. ولقد خلقه الله ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ وهو الطين اليابس الذي إذا نقر يكون له صوت ﴿مِنْ حَمإٍ﴾ أي متغير إلى السواد من طول مجاورة الماء ﴿مَسْنُونٍ﴾ أي المصور، وقيل: المنتن، وقيل المصبوب.

فالإنسان أساسه الأول هو التراب كما جاء في القرآن: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

فلما اختلط التراب بالماء صار طيناً، ثم اسود من طول مجاورة الماء له، ثم صوره الله بهذا الشكل الإنساني المعهود.

﴿وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ وخلق الله الجن قبل آدم وإبليس هو من الجن كما جاء في القرآن:

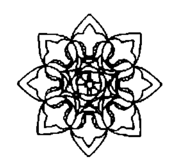
﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقد خلق الله إبليس والجن من نار شديدة الحرارة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشراً مِنْ صَلْصَالٍ من حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ أي اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة إني سأخلق إنساناً من طين يابس مسود مصور على هيئة إنسان ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ فإذا عدّلت صورته وأتممت خلقه وجعلته لحماً وعظماً ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وأفضت عليه من الروح التي هي من أمري، والروح سرٌّ من أسرار الله تحيا به الأبدان حينما يتصل بها وتموت حينما ينفصل عنها، وفي إضافة الروح إلى الله (روحي) التي أفاضها على الإنسان تشريف وتكريم

له، وأرواح العباد منسوبة إلى الله عن طريق الخلق وليست جزءاً من الله فهو سبحانه منزّه عن التجزئة ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي فإذا أتممت خلق الإنسان وأصبح بشراً فاسقطوا على الأرض ساجدين له سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، وهذا مما يبين مرتبة الإنسان وتكريم الله له، وتفضيله على سائر المخلوقات.

﴿فَسَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُم أَجْمَعُونَ﴾ فسجد الملائكة جميعهم لآدم بعد تمام خلقه ونَفْخِ الروح فيه تنفيذاً لأمر الله لهم ﴿إلاَّ إبْلِيسَ أَبَى أَنْ يكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أما إبليس فإنه امتنع أن يسجد لآدم كما فعل الملائكة.

﴿قَالَ يَا إبْلِيسُ مَا لَكَ ألاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي قال الله لإبليس توبيخاً له: ما سبب امتناعك عن السجود لآدم استجابة لأمري ﴿قَالَ لَمْ أكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ أي أجاب إبليس: لا يصح مني ولا يليق بحالي أن أسجد لبشر خلقته من طين يابس أسود، زاعماً بذلك أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم فهو مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين، والنار في زعمه أشرف من الطين ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّك رَجِيمٌ﴾ أي قال الله لإبليس بعد أن أعلن تكبره على آدم: اخرج من الجنة التي كنت فيها فإنك مرجوم ومطرود من كل خير وكرامة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إلى يَوْمِ الدِّينِ﴾ وإن عليك غضب الله والطرد من رحمته إلى يوم الجزاء وهو يوم القيامة.



﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

شرح المفردات

فأنظرني: فأمهلني ولا تمتني.

لأزينن لهم في الأرض: لأحسِّنَنَّ لهم المعاصي.

لأغوينهم: لأضلنهم.

سلطان: تسلّط وقدرة.

جزء مقسوم: فريق معين مفروز من غيره.

آدم وغواية الشيطان

وبعد أن سمع إبليس حكم الله عليه بالطرد من رحمته وبشديد عقوبته عليه سأل ربه أن يؤخر موته إلى يوم يبعث فيه آدم وذريته للجزاء:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرني إلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي قال إبليس: ربِّ أخِّر موتي إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم لتجازيهم على أعمالهم، وقد أراد بذلك أن يتسع له المدى لإغوائهم ويشتركوا معه في سوء المصير ﴿قَالَ فَإِنَّك مِنَ المُنْظَرِينَ. إلَى يَوْمِ الوَقْتِ المعْلُومِ﴾ قال الله: فإنك ممن أُخِّر هلاكه إلى يوم الوقت المعلوم وهو النفخة الأولى حيث تموت جميع الخلائق يوم القيامة كما قال سبحانه:

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

وبعد أن سمع إبليس الحكم من الله بإمهاله إلى يوم البعث خاطب ربه قائلاً:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي بسبب حكمك عليّ يا رب بالغواية من أجل آدم، والغواية هي الضلال والخيبة[1] ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي لأُحسِّنن للذرية آدم المعاصي ولأحببنها لهم ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُم المخْلَصِينَ﴾ ولأضلنهم أجمعين عن سبيل الرشاد إلاّ من أخلص منهم لطاعتك يا رب، ووفقته لهدايتك فإنهم لا سبيل لي عليهم، وإنما استثناهم إبليس لأنه علم أن وسوسته لا تؤثر فيهم.

ولمّا استثنى إبليس المخلصين لله من بني آدم من التأثر بإغوائه لِما أدركه فيهم من الحصانة الدينية، قال الله مؤكداً حمايته لهم من وسوسته: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي قلته أنت يا إبليس من أن المخلصين لا سبيل لك عليهم هو طريق ومنهج مستقيم، عليَّ أن ألتزم به نحوهم فلا أسلطك عليهم، بل أحميهم من وسوستك وإضلالك إياهم. وقيل المراد بالآية التهديد والوعيد كقولك لمن تهدده طريقك عليَّ وأنا على طريقك لا مهرب لك مني فأجازي كلاًّ بعمله.

﴿إنَّ عِبَادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ﴾ إن عبادي المخلصين ليس لك يا إبليس تسلّط عليهم وقدرة على إضلالهم ﴿إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ﴾ أي ولكن من اتبعك من الضالين فإنه يخضع لسلطانك ويتأثر بإضلالك.

ثم يتوعّد الله المصرين على الضلال بقوله: ﴿وَإنَّ جَهَنَّمَ لَموعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وإن نار جهنم موعد لجميع من اتبع إبليس وهي مقرّ لهم لا يتخلف عنها منهم أحد، وهي ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي أن جهنم لها سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في الغواية والضلالة وقد يراد بالأبواب معناها المعروف وإنما تعددت لكثرة من

---

(١) والمراد من إغواء الله إياه قضاؤه عليه بالغواية والضلال بسبب تكبره وعصيانه أمر به، أو لما كانت هذه الغواية نتجت عن عصيان أمر الله فقد أسندت الغواية إلى الله مجازاً ﴿بما أغويتني﴾، والله لا يضل إلاّ الخارجين عن طاعته كما جاء في القرآن: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

يدخل النار ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُم جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أي لكل طبقة أو لكل باب يدخل فيه فريق معين من أتباع إبليس بحسب أعمالهم ومعاصيهم وظلمهم.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

شرح المفردات

عيون: المراد بها أنهار الجنة.

غلّ: عداوة وضغينة.

بسلام: بسلامة من الآفات.

سرير: جمع سرير وهو المقعد المريح الذي تستقر فيه أعضاء الجسم كما يطلق على الذي يضطجع عليه.

نصب: تعب وإعياء.

نبىء: خبّر وبلّغ.

أحوال المتقين في الآخرة

وبعد أن أنذر الله الذين يتبعون الشيطان بسوء المصير تأتي البشرى لمن اتقى ربه بالنعيم في الآخرة:

﴿إِنَّ المتَّقِينَ في جَنَّات وَعُيُونٍ﴾ أي إن الذين اتقوا الشرك والكفر وأطاعوا الله وتجنبوا المعاصي هم في الآخرة في جنات فيها كل أنواع الثمار ومن حولهم عيون وينابيع تجري مياهها بين أشجارها ومساكنها ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ ويقال لهؤلاء

المتقين عند دخولهم الجنة: ادخلوها سالمين فيها من الآفات التي تصيب الناس في الدنيا، آمنين من أن يطرأ عليكم ما يخيفكم، أو ادخلوها مسلّماً عليكم مرحّباً بكم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ﴾ أي وأخرجنا ما في صدورهم من حقد وعداوة كانت بينهم في الدنيا ﴿إِخْواناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ أي وأصبحوا إخواناً متحابين يجلسون على أسرّة متقابلين ينظر بعضهم إلى وجوه بعض بصفاء ومودة ﴿لا يَمَسُّهُم فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب لعدم وجود ما يسبب ذلك في الجنة ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ لا يخرجهم أحد من الجنة ونعيمها فهم خالدون فيها أبداً.

﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾يأمر الله رسوله محمداً بأن يبلّغ أمته جميعاً أن الله هو العظيم الغفران الواسع الرحمة ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ وأن عذاب الله هو العذاب الأليم البالغ الغاية في الشدة.

هاتان الآيتان ينبثق عنهما المعاني الآتية:

قوله تعالى: ﴿نبيء عبادي﴾ حيث أضاف العباد إلى نفسه وفي هذا تشريف لهم وتكريم، وكل من أقر بالعبودية لله شمله هذا التكريم.

ومنها: أن الله لما ذكر المغفرة والرحمة أكد عليهما بألفاظ ثلاثة: أولها: قوله ﴿أني﴾ ثانيها: ﴿أنا﴾ ثالثها: إدخال الألف واللام على المغفرة والرحمة ﴿الغفور الرحيم﴾ وهذا كله يدل على رجحان جانب المغفرة والرحمة.

ثم إن الله سبحانه لما ذكرالعذاب لم يقل إني المعذب المؤلم على وجه المقابلة مع المغفرة والرحمة، بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ على سبيل الإخبار، وهذا كله يدل على ترجيح جانب المغفرة والرحمة، وفي هذا يقول رسول الله محمد ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

فعلى الإنسان أن يجمع بين الرجاء والخوف من الله وأن يكونا في مستوى واحد، فإن المبالغة في الرجاء بمغفرة الله ورحمته تفضي إلى تسويف الأعمال الصالحة وإهمالها أو تأخير التوبة من المعاصي، والمبالغة في الخوف من عذاب الله تفضي إلى القنوط واليأس من رحمة الله.



﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) ﴾

شرح المفردات

وجلون: خائفون.

مسّني الكِبر: أدركني كِبَرُ السنّ.

القانطين: اليائسين.

فما خطبكم؟: فما شأنكم الخطير؟

قدّرنا: حكمنا وقضينا.

الغابرين: الباقين في العذاب مع أمثالها.

الملائكة تبشّر إبراهيم بولد

ويتابع القرآن فيذكر ما خصَّ الله به نبيه إبراهيم من فضله ورحمته ومن ذلك تبشيره بولد:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي أخبر يا محمد أمتك عن ضيف إبراهيم. والضيف يطلق على الواحد والجمع في كلام العرب، والمراد بضيف إبراهيم رسل من الملائكة وهم جبريل وملكان معه وقيل أكثر من ذلك، وكانوا في صورة شبان حسان الوجوه.

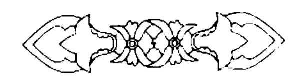
﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً﴾ أي واذكر يا محمد حين دخل هؤلاء الملائكة على إبراهيم فقالوا سلاماً، أي قالوا له هذا اللفظ تحية له ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي قال إبراهيم عليه السلام للملائكة لما استقروا عنده: إنا منكم خائفون، وسبب خوفه من ضيوفه أنه قدّم لهم عجلاً مشوياً فلم تمتد أيديهم إلى الأكل منه فارتاب بشأنهم وأوجس منهم خيفة، والقرآن لم يذكر ذلك هنا اكتفاء بما ذُكِرَ في سورة هود والقرآن يكمل بعضه بعضاً: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ . فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٦٩، ٧٠] وقد جرت العادة عند قوم إبراهيم أنه إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير.

طمأنت الملائكة إبراهيم بما يزيل خوفه: ﴿قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ أي لا تخف منّا فإنا ملائكة ربك جئناك لنبشرك بغلام سيهبه الله لك وسيكون في شبابه عظيم القدر كثير العلم وهو إسحق عليه السلام ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي قال إبراهيم متعجباً من تبشيرهم إياه بالولد مع كبر سنه وشيخوخته، وكبر سنّ امرأته، ثم أكد تعجبه بصيغة الاستفهام التعجبي ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي فبأي أعجوبة تبشرونني، لأن البشارة إذا جاءت بما لم تَجْرِ به العادة

كانت أمراً يدعو إلى العجب. فأجابته الملائكة: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي بشرناك باليقين الذي لا لبس فيه وبالأمر المحقق الثابت فلا تكن من الآيسين من الخير ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ قال إبراهيم: ولا ييأس من رحمة ربه إلاّ الخاطئون المنصرفون عن طريق الصواب الذين لا يعرفون فضل الله وسعة رحمته.

وبعد أن اطمأنَّ إبراهيم إلى ضيوفه بعدما علم حقيقتهم أدرك بفراسته أن وجودهم عنده ليس مقتصراً على تبشيره بولد، والبشارة يكفي فيها واحد وهم ذوو عدد لذا خاطبهم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُم أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي ما هو أمركم وشأنكم الخطير الذي أُرسلتم به سوى بشارتي بولد؟ وقد كانت إجابتهم مصدقة لفراسته حيث قالت الملائكة: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ أي إن الله أرسلنا إلى قوم مجرمين لمعاقبتهم، والقرآن في هذه السورة لم يفصِّل سبب إرسالهم والمهمة الموكولة إليهم على سبيل الإيجاز اكتفاء بما ذُكِرَ في سورة الذاريات: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٢، ٣٣].

ثم تابعت الملائكة قولها: ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُم أَجْمَعِينَ﴾ أي إن عذاب الله لن يصيب آل لوط وهم من آمن بالله وأطاعه من قومه، ولو كانوا من غير قرابته فهؤلاء سننجيهم من العذاب أجمعين ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّها لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أما امرأة لوط فقد حكمنا وقضينا بأنها من الباقين في العذاب والهلاك مع الكفرة المجرمين، وإنما أسند الملائكة القضاء بهلاكهم إلى أنفسهم مع أن الله هو الذي قدَّر وقضى ذلك لأنهم هم المنفذون لأمر الله فيهم بالهلاك.



﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

شرح المفردات

منكرون: أي أنكم مجهولون لديّ ولا أعرفكم.

يمترون: يشكّون.

فاسر بأهلك: فسر بأهلك ليلاً.

اتبع أدبارهم: سر خلفهم.

وقضينا إليه: أوحينا إليه.

دابر هؤلاء: آخرهم والمراد جميعهم.

مقطوع مصبحين: أي يتم استئصالهم وإهلاكهم في الصباح.

حُكْمُ اللّٰهِ بهلاك قوم لوط

ترك الملائكة إبراهيم عليه السلام بعد أن بشّروه بولد، وتوجهوا إلى مدينة «سدوم» وحلوا ضيوفاً على النبي لوط عليه السلام بصورة بشر وهو يجهل حقيقتهم.

وكان أهل مدينة «سدوم» من أفجر الناس وأكفرهم يقطعون الطرق للسلب والنهب، وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين وهي الشذوذ الجنسي، فأرسل الله إليهم نبيه لوطاً بالرسالة الإلهية محذراً لهم من عذاب الله إن استمروا على ما هم عليه من إجرام وفسوق. هذا وسُمي الشذوذ الجنسي الذكري لواطاً لأنه انتشر في قوم النبي لوط، والقرآن سمى هذا العمل: إتيان الرجال.

والقرآن يذكر قصة لوط مع قومه في مواضع متعددة، وهنا في هذه السورة يخبرنا بأن الله قد قضى بإهلاك قوم لوط.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي بعد أن خرج الملائكة من عند إبراهيم وجاءوا قرية سدوم ونزلوا ضيوفاً على لوط وآله ﴿قَالَ إِنَّكُم قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي قال لوط لضيوفه: إني لا أعرفكم فمن أنتم، ولأي أمر جئتم؟ قال لهم ذلك لأنهم ليسوا من أهل مدينته ولا تبدو عليهم آثار السفر.

ويحكي الله سبحانه إجابتهم للوط على سؤاله لكي يطمئنوه ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فيه يَمْتَرُونَ﴾ أي ما جئناك بما يسوؤك بل جئناك بما فيه سرورك ونصرك على أعداء الله، وهو إيقاع العذاب بقومك الذي كنت تتوعدهم بنزوله وكانوا يشكون في وقوعه، وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه. قالوا له ذلك بعد أن كشفوا عن حقيقتهم وأنهم من صنف الملائكة أرسلهم الله لإهلاك قومه المجرمين. ثم أكدوا بشارتهم هذه بقولهم: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي وجئناك بالأمر المحقق المتيقن الذي لا مجال للشك فيه وهو إنزال العذاب بهم، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به.

ثم تابعت الملائكة قولها للوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي سِرْ واذهب بأهلك في جزء من الليل أو في آخره. ولم يذكر القرآن استثناء امرأته من السير معه اكتفاء بما ذكر في آيات أُخر ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي كن من ورائهم وسر خلفهم، لتطّلع على أحوالهم، وتبعث الطمأنينة في نفوسهم ﴿ولا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا تلتفت أنت يا لوط ومن معك لئلا تروا ما وراءكم من هول العذاب فلا تطيقونه، وقيل: المراد بعدم الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف لأن الملتفت قلما يخلو من أدنى وقفة، وموقفهم هو موقف خطر وهم عليهم الهرب من العذاب ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ وسيروا إلى المكان الذي يأمركم ربكم بالسفر إليه، قيل إن هذا المكان هو الشام، أو الأردن، أو مصر.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ أي وأوحى الله إلى لوط أنه سبحانه حكم وقدّر

على قومه حكماً لا مردّ له وهو: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ دابر: أي آخر، ومقطوع: أي مستأصل، ويكون المعنى: إن قوم لوط يستأصلون بالعذاب عن آخرهم وهم داخلون في وقت الصباح فلا يبقى منهم أحد على قيد الحياة.



﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

شرح المفردات

ولا تخزونِ: ولا تهينوني.

لعمرك: قسم من الله بحياة نبينا محمد ﷺ.

سكرتهم: غفلتهم الشديدة أو ضلالتهم التي جعلتهم كالسكارى.

يعمهون: يترددون ويتحيرون.

الصيحة: الصوت الشديد المزعج، والمراد به العذاب الذي أهلكهم الله به.

مشرقين: داخلين في وقت شروق الشمس.

سجّيل: طين متحجّر.

للمتوسّمين: للذين في نظرهم فراسة فيعرفون حقيقة الشيء بسمته وعلامته.

لبسبيل مقيم: لفي طريق واضح ليس بخفي.

يوم عصيب مرّ على لوط

وهنا تعود بنا الآيات لتصف بعض المواقف الحرجة التي صادفها لوط عليه السلام عندما دخل الملائكة ضيوفاً عليه بصورة فتيان حسان وهو يجهل أنهم من الملائكة، فضاق بهم ذرعاً وخاف عليهم من اعتداء قومه عليهم بفعل الفاحشة بهم، وواجب الضيافة يحتم عليه أن يحميهم من كل أذى.

ثم شرع القرآن يذكر ما صدر من القوم حين علموا بقدوم ضيوف حسان الوجوه على لوط:

﴿وَجَاءَ أَهْلُ المَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾أي وجاء أهل مدينة سدوم منزل لوط مستبشرين فرحين حين علموا أن عنده ضيوفاً غرباء في نهاية الحسن والجمال. ﴿قَالَ إنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فلا تَفْضَحُونِ﴾أي قال لوط لقومه الذين قصدوا بيته ليأخذوا هؤلاء الضيوف ويفعلوا فيهم الفاحشة وهي اللواط: إن هؤلاء أضيافي فحق عليَّ أن أبذل غاية وسعي في إكرامهم وحمايتهم فلا تتعرضوا لهم بسوء، ولا تفضحوني بفضيحة ضيفي لأن الإساءة إلى الضيف إساءة إلى المضيف ﴿واتَّقُوا اللَّهَ ولا تُخْزُونِ﴾ أي خافوا الله في أمرهم ولا ترتكبوا الفاحشة في ضيفي فتوقعوني في الذل والهوان أمام الأضياف.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَالَمِينَ﴾ أي قال قوم لوط: ألم ننهك يا لوط أن تضيف أحداً من الناس أو تؤويه في قريتنا، إذ إنهم كانوا يتعرضون لكل غريب بالسوء، أو بمعنى: ألم نتقدم إليك وننهك عن أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة.

ولما رأى لوط أن قومه مصرون على فعل الفاحشة بضيوفه قال لهم: ﴿قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إنْ كُنتُم فَاعِلِينَ﴾ أي هؤلاء بناتي أزوجكم إياهن إن اتبعتم ما أمرتكم به من الدِّين، أراد أن يحمي أضيافه ببناته، وقد كان لوط من قبل إذا طلبوهن منه لا يرضى بهم لخبثهم وعدم كفاءتهم، وقيل: أراد بقوله بناتي نساء قومه فإن نبي كل

أمة بمنزلة أبيهم وأولاد الأمّـة أولاده، أي تزوجوهن ولا تفعلوا ما قد حرّم الله عليكم من إتيان الرجال، إن كنتم راغبين في قضاء شهوتكم فاقضوها بما أحله الله لكم عن طريق الزواج بالبنات.

والقرآن في هذا السياق يقدم لنا توجيهاً كريماً في المحافظة على الضيف وإكرامه وحمايته من الأذى، وذلك أخذاً من التصرف الكريم الذي فعله لوط مع ضيوفه.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قيل بأن هذا قَسَمٌ من الله بحياة نبيه لوط عليه السلام بأن قومه في غفلة وضلالة جعلتهم كالسكارى يتحيرون ويترددون فكيف يستمعون للنصح أو يستجيبون لداعي الهدى. ويرى بعض المفسرين أنه قسم بحياة النبي محمد ﷺ حيث قال ابن عباس: ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ، وتكون الضمائر عائدة على قريش ويكون القسم جملة معترضة في قصة لوط.

ثم يذكر القرآن ما حلّ بقوم لوط: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ فأهلكتهم صيحة العذاب مع شروق الشمس ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فأمر الله ملائكته بجعل عالي أرضهم سافلها ودمرها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ وأرسل الله عليهم طيناً متحجراً كالمطر المتتابع زيادة في عذابهم وإتماماً لهلاكهم بحيث قضى عليهم جميعاً.

﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ للمتوسِّمِينَ﴾ إن في ذلك لعلامات ودلائل للناظرين المعتبرين الذي يتأملون الأشياء فيعرفون حقيقتها ﴿وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ وإن مدينة سدوم التي أصابها الهلاك لتقع على طريق واضح لا يخفى على أحد، فإن السالك في الطريق من المدينة المنورة إلى الشام يرى آثار هذا العذاب من الخراب والدمار الذي حلّ بقوم لوط ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً للمؤمِنِينَ﴾ إن في صنيع الله بقوم لوط لعلامة بينة ودلالته واضحة لمن آمن بالله وأيقن أن ما حلّ بهم هو بسبب مقت الله إياهم لإجرامهم وسوء صنيعهم.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾

شرح المفردات

أصحاب الأيكة: سكان بقعة كثيفة الأشجار الملتف بعضها على بعض.

لبإمام مبين: لفي طريق بيّن واضح يؤتَمُّ به.

أصحاب الحجر: هم ثمود قوم النبي صالح.

معرضين: متولين عن طريق الحق.

الصيحة: الصوت الشديد المزعج.

مصبحين: داخلين وقت الصباح.

فما أغنى عنهم: فما دفع عنهم وما نفعهم.

الساعة: القيامة.

أصحاب الأيْكَةِ وأصحاب الْحِجْرِ

ثم تنتقل بنا الآيات إلى الكلام عن أصحاب الأيكة وهم كانوا أهل غيضة وشجر مثمر، والغيضة هي الموضع الكثير الشجر والماء، كما أن الأيكة تطلق على الشجر الملتف الكثيف. وأصحاب الأيكة هم قوم ظلموا أنفسهم بالكفر وسائر المعاصي، فأرسل الله إليهم رسوله شعيباً لينذرهم من عذاب الله إن استمروا في كفرهم وعصيانهم لله. يقول الله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ أي إن حال الكفر والعصيان الذي كان عليه قوم لوط هو أيضاً حال أصحاب الأيكة، فقد كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُم﴾ وقد كان انتقام الله منهم بأن سلّط عليهم الحرّ سبعة

أيام حتى أخذ بأنفاسهم واقتربوا من الهلاك فبعث الله عليهم سحابة كالظلّة[1] فالتجأوا إليها واجتمعوا تحتها يلتمسون الراحة والظل فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم. وقد ذكر القرآن في موضع آخر ما حلّ بأصحاب الأيكة: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي وإن مساكن قوم لوط ومساكن أصحاب الأيكة لفي طريق واضح يبصر آثار الخراب والدمار فيهما كل من يمرّ بديارهم، وسمي الطريق هنا إماماً لأنه يؤم ويتبع لأن الإنسان إذا أراد الانتقال من موضع إلى آخر فإنه يأتم بالطريق حتى يصل إلى الموضع الذي يريده.

وأخيراً يأتي الكلام عن أصحاب الحِجْر الذين سميت هذه السورة باسمهم، ويطلق عليهم قوم ثمود، والحِجْر هو واد بين المدينة المنورة والشام كان يمر به المسافرون من الحجاز إلى الشام، وقد أرسل الله إليهم رسوله صالحاً ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المرْسَلِينَ﴾ أي ولقد كذّب أصحاب الحجر ـ وهم قوم ثمود ـ رسول الله إليهم «صالحاً» فكأنهم بتكذيبهم إياه مكذبين لرسل الله جميعاً لأن رسالتهم واحدة وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده وترك الأفعال السيئة ﴿وَآتَيْنَاهُم آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي أعطاهم الله الحجج والعلامات الدالة على أن «صالحاً» رسول من عنده وأيده بمعجزة الناقة فكانوا عنها معرضين إعراضاً كلياً غير معتبرين ولا متعظين. وقد ذكر الله الآيات وهي المعجزات بصيغة الجمع والناقة وإن كانت آية واحدة إلاّ أنها اشتملت على آيات كخروجها من الصخرة وعظم جثتها وغزارة لبنها.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً حصينة حيث كانوا يقطعون حجارتها وينحتونها تسوية لها ثم يبنون منها بيوتهم ليعيشوا فيها آمنين من الهدم وعلى أنفسهم من عدوان الغير عليهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ فأهلكتهم صيحة العذاب وزلزلت الأرض

---

(١) الظلة: ما أظل من حر الشمس من سحاب أو شجر أو بناء.

بهم كما في سورة الأعراف: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

والرجفة هي الزلزلة. وكان هلاكهم وقت الصبح ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فما دفع عنهم شيئاً من عذاب الله ما كانوا يكسبون من الأموال وما يبنون من البيوت الثابتة في الجبال.

وقد روي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال لأصحابه: لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلاّ أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن[1] يصيبكم مثل ما أصابهم[2].

وروي عن النبي ﷺ أنه لما نزل الحجر أرض ثمود في غزوة تبوك أمر أصحابه ألاّ يشربوا من مائها ولا يستقوا منها.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

شرح المفردات

الساعة: القيامة.
سبعاً من المثاني: سورة الفاتحة التي هي سبع آيات.
أزواجاً: أصنافاً.
واخفض جناحك: تواضع وألن جانبك.

---

(١) أن: بمعنى لئلا.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

توجيهات من الله إلى رسوله محمد ﷺ

وبعد أن ذكر القرآن ما أصاب الأمم السابقة من هلاك جزاء كفرها عقّب على ذلك ببيان الحكمة الإلهية من ذلك بقوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي وما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما من العناصر إلاّ بالعدل والإنصاف لا بالظلم والجور، فالله سبحانه لا يظلم أحداً من الأمم التي أصابها العذاب والهلاك، فالذين كذبوا رسل الله وعاثوا في الأرض فساداً قضت حكمة الله وعدالته أن يهلكهم أمثال الأمم التي سبق ذكرها، وذلك تطهيراً للأرض من شرورهم وفسادهم، هذا جزاؤهم في الدنيا، أما في الآخرة ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ﴾ وإن القيامة لآتية حيث يعذبهم الله في النار ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجمِيلَ﴾ أي اعف يا محمد عن الذين يناصبونك العداء من قومك عفواً حسناً لا يخالطه حقد ولا ضغينة، عفواً تترفع فيه عن الانتقام منهم، عفواً يخلو من العتاب والمنّة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾وإن ربك هو الذي خلقهم وخلق كل شيء فهو عالم بهم وبما يأتون من الأفعال.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي والقُرآنَ العَظِيمَ﴾ أكثر المفسرين قالوا: إن المراد بالسبع المثاني (فاتحة الكتاب) فهي سبع آيات «تُثَنّى» أي تكرر في كل صلاة لأنها جمعت أصول الشريعة. والمثاني أيضاً جمع مثناة أو مثنية مأخوذة من الثناء والفاتحة تشتمل على ما هو ثناء على الله. وقد ورد في الصحيحين من حديث أبي سعيد بن المعلى أن النبي ﷺ قال له: «لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن» ثم قال له (الحمد لله رب العالمين...) إلى آخر سورة الفاتحة، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها يعني: أم القرآن (أي الفاتحة)

وإنها لهي السبع المثاني التي آتاني الله تعالى[1] ﴿والقُرآنَ العَظِيمَ﴾ والقرآن كما يطلق على كتاب الله يطلق على بعضه فكان عطف القرآن على سورة الفاتحة تعميماً بعد تخصيص.

وقيل: المراد بالمثاني السور السبع الطوال، وسميت بالمثاني لما فيها من تكرار القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك، وهذه السور هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. والقول الأول بأنها فاتحة الكتاب هو أرجح والله أعلم.

ولا يمنع من وصف القرآن كله بأنه مثاني وقد جاء في القرآن:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

ولما كانت متع الدنيا ضئيلة جداً بالنسبة إلى ما أنعم الله به على نبيه من نعمة القرآن خاطبه الله قائلاً: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُم﴾ أي لا تنظر يا محمد نظرة تَمَنٍّ ورغبة، ولا تطمح نفسك إلى مثل ما أوتيه أصناف من الكفار من المال والجاه ومتع الحياة وزينتها فإن القرآن أعظم من هذا كله فهو عز الدنيا والآخرة ﴿ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا تحزن على الكفار ولا تتحسّر إذا لم يؤمنوا فما عليك إلاّ البلاغ ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ للمؤْمِنِينَ﴾ أي تواضع لمن اتبعك من المؤمنين وارفق بهم. فخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب، وهو مأخوذ من خفض الطائر جناحه على فرخه وضمه إليه برفق وعطف وحنان فجعل ذلك وصفاً للتواضع، والجناحان من الإنسان جانباه.

---

(١) عن تفسير الطبري.

﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

شرح المفردات

عضين: أعضاء وأجزاء متفرقة وعضين جمع عضة أي جزء.

فاصدع بما تؤمر: فاجهر بما تؤمر وأظهره.

كفيناك المستهزئين: تولينا إهلاكهم.

من الساجدين: من المصلين.

اليقين: الموت، وعبر عنه باليقين لتحققه.

إنذارٌ من الله للكافرين

وأخيراً يخاطب الله رسوله محمداً بأن ينذر الكافرين ويحذرهم من التمادي في ضلالهم والوقوف في وجه الدعوة الإسلامية لئلا يصيبهم الهلاك العاجل: **﴿وَقُلْ إني أنَا النَّذِيرُ المُبِينُ﴾** أي ـ قل يا محمد لهؤلاء الكافرين: إني أنا المحذر لكم من عذاب الله ببرهان ووضوح **﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى المقتَسِمِينَ﴾** أي هذا العذاب الذي أنذركم به هو مثل العذاب الذي أنزله الله على المقتسمين. والمقتسمون هم ستة عشر رجلاً أرسلهم الوليد بن المغيرة أيام موسم الحج فاقتسموا طرق مكة ومداخلها يقولون لمن سلكوها: لا تغتروا بهذا الخارج منا عن ديننا يدّعي النبوّة فإنه مجنون، وربما قالوا ساحر، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن، وسموا مقتسمين لأنهم اقتسموا مداخل مكة، فانتقم الله منهم وأماتهم شر ميتة **﴿الَّذِينَ جَعَلُوا القُرآنَ عِضِينَ﴾** أي الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرقة فقال بعضهم في القرآن إنه سحر،

وبعضهم قالوا إنه كهانة، وبعضهم قالوا إنه شعر، وبعضهم قالوا إنه أساطير الأولين ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أقسم الله بنفسه أنه سيسأل هؤلاء المقتسمين يوم القيامة عما كانوا يعملون في دنياهم من كفر وتكذيب وافتراء، وليس سؤال الله لهم سؤال استفهام واستعلام وإنما هو سؤال تقريع وتوبيخ.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي فاجهر يا محمد بما تؤمر به وأظهره، يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً. وتأتي كلمة الصدع بمعنى الشق والتفريق، أي افرق بالقرآن بين الحق والباطل. هذه الجملة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فيها من جزالة اللفظ وبلاغة المعنى ما تنحني لإعجازه البلغاء إكباراً وتعظيماً له، ويحكى أن بعض العرب سمع قارئاً يقرأها فسجد لله، فقيل له في ذلك فقال سجدت لبلاغة هذا الكلام ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تبال بالمشركين وأذاهم فالله حافظك وناصرك عليهم.

ولما كان المستهزئون بالدعوة الإسلامية هم أكبرالمعوقين لها من الانتشار وعد الله رسوله محمداً بأن يهلكهم ويكفيه شرهم فقال سبحانه:

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ أي إننا تولينا إهلاك المستهزئين الذين يستهزئون بك يا محمد وبالقرآن الذي أنزلناه عليك. وهؤلاء المستهزئون كانوا خمسة نفر يبالغون في إيذاء رسول الله والاستهزاء به وهم: الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاصي بن وائل السّهميّ، والأسود بن الطيب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس، وقد كانوا ذوي قوة وشوكة ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ وهؤلاء لم يقتصروا على الاستهزاء برسول الله بل اجترأوا على إثم عظيم وهو الإشراك بالله وجعلهم معه إلَهاً آخر ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد لهم من رب العالمين، أي فسوف يعلمون ما يحل بهم من الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، وقد تحقق وعد الله فيهم فأماتهم شر ميتة. هذه بشرى عظيمة ومعجزة كبيرة بانتصار دين الله وتغلبه على كل من ناوأه وفوق هذا سلامة رسول الله ﷺ من كيد المشركين والمؤامرات ضده. أيّ برهان أعظم من ذلك يشهد بأن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي أن الله يعلم ما يصيبك يا محمد من انقباض في صدرك، وشدة كربك بسبب ما يقوله المشركون فيك وفي القرآن من الاستهزاء والكذب ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي فالجأ إلى ربك فيما يصيبك من ضيق الصدر بالتسبيح له سبحانه منزهاً له عن النقائص مقروناً ذلك بحمده، أي قل: سبحان الله والحمد لله. أو فنزهه سبحانه عما يقول هؤلاء المشركون من أن لله شريكاً في ملكه، واحمد الله على أن هداك للحق ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي كن من المصلين، لأن السجود ركن من أركان الصلاة، فهو تعبير بالجزء عن الكل، حيث عبّر بالسجود وهو جزء عن الصلاة وهي كلٌّ. والسجود أفضل أجزاء الصلاة لما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء» وذلك لأن السجود فيه الخضوع والاستسلام والذلة لله رب العالمين. فكأن الله سبحانه يقول لرسوله محمد ﷺ تعليماً له ولأمته من بعده: كن من المصلين الخاشعين لله يكشف همك وغمك ويزول الضيق الذي تجده في صدرك ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ واعبد ربك في جميع أوقاتك، ومدة حياتك حتى يأتيك الموت وأنت في عبادة ربك. وعُبِّر عن الموت باليقين لأنه متيقن اللحوق بكل حي على وجه الأرض وفسِّر اليقين أيضاً بالنصر على الكافرين الذي وعد الله به رسوله.

والجدير بالذكر أن القرآن دعا بعد ضيق الصدر إلى تسبيح الله وحمده والقيام بالصلاة والانكباب على عبادة الله لأن ذلك يؤدي إلى زوال الإحساس بالضيق عنه، وتخفيف ما يصيب النفس من أحزان، ذلك أن العبادة تنكشف فيها أضواء عالم ربوبية الله وجلال عظمته، وسعة رحمته، فينشرح الصدر، وتطمئن النفس، وعند ذلك يدرك المتعبد لله قدر الدنيا وحقارة شأنها فلا يلتفت إليها ولا يتحسر على ما فاته من نعيمها وملذاتها، فيزول الهم والحزن والغم عن القلب يقيناً بأن الآخرة أفضل من الدنيا، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين.

تعريف بسورة النحل

هذه السورة مكية ما عدا الآيات الثلاث الأخيرة فإنها مدنية، وسميت سورة النحل بهذا الاسم للشأن العجيب المدهش في أمر النحل وصنعها للعسل، والتي تعمل بإلهام من الله.

وهذه السورة تتناول النِّعَم العديدة التي أسبغها الله على خلقه، ولهذا سُمِّيت أيضاً بسورة «النِّعَم». فمن هذه النعم أن الله خلق الأنعام لينتفع الناس بأصوافها وأوبارها وألبانها ولحومها، كما أنه سبحانه هيأ للناس استخدام الإبل للركوب عليها وحمل أمتعتهم وغيرها إلى مكان بعيد، وذلك قبل أن يلهم الله الإنسان الاهتداء إلى وسائل النقل الحديثة.

ومن نِعَمِ الله على الإنسان أنه أنزل المطر من السماء ليشرب منه الإنسان ولينبت به الزرع وأنواعَ الثمار، كما سخَّر الله الليل والنهار وذلك يحصل بدوران الأرض حول محورها، ولولا الليل والنهار لما صلح عالم النبات ولما انتظمت حياة الإنسان.

كما سخَّر الله البحر للإنسان ليأكل منه لحماً طرياً ولتجري به السفن لمنفعة الإنسان في المواصلات والتجارة والصيد.

ومن نعم الله على الإنسان أن خلق له أزواجاً من جنسه ليسكن إليهن ورزقه منهن بنين وحفدة، كما منحه نعمة السمع والبصر والعقل.

والنعم التي أعطاها الله للإنسان تزول بالكفران بها كما حصل لقرية ما فأذاقها الله لباس الخوف والجوع.

وفي هذه السورة يأمر الله الناس بالعدل والإحسان وصلة الأرحام، وينهاهم عن الآثام والمنكرات والظلم، كما يأمرهم بالوفاء بالعهود، وألا ينقضوا ما أبرموه منها، وألا يتخذوا العهود وسيلة للخداع والتمويه.

ثم يوجه الله رسوله محمداً ﷺ والمؤمنين إلى الدعوة إلى الله بالرفق والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

هذا بعض ما تحتويه السورة من موضوعات اقتصرنا عليها خوفاً من التطويل.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾

شرح المفردات

تعالى: تعاظم بذاته وصفاته الجليلة.

بالروح: بالوحي الإلهي.

أنذروا: الإنذار إخبار فيه تخويف.

إنذار من الله للمشركين

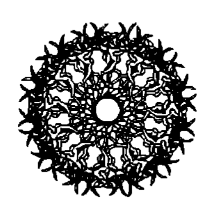
كان رسول الله محمد ﷺ في دعوته إلى الإسلام يخوّف المشركين وينذرهم بعذاب الدنيا تارة، وبعذاب يوم القيامة تارة أخرى إذا استمروا على كفرهم بعبادة الأصنام. ولما كان المشركون لم يصبهم شيء من العذاب طلبوا من رسول الله استعجال العذاب فيهم سخرية منهم وتكذيباً لرسول الله، فنزل قول الله تعالى:

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي نزل قضاء الله وحكمه بنصر المؤمنين وهزيمة المشركين إذا أصروا على الكفر والعصيان، وإذا كان قضاء الله نافذاً لا محالة في الوقت الذي قدَّره الله سبحانه فلا داعي أن تستعجلوا وقوعه أيها المشركون.

وعبّر القرآن عن المستقبل بلفظ الماضي: ﴿أتى أَمْرُ اللَّه﴾ تنبيهاً على تحقق وقوعه، وقد حصل هذا العذاب وتحقق بعد فترة وجيزة من نزول هذه الآية، حيث قُتل سبعون من رؤوس الكفر من قريش في معركة بدر ﴿سُبْحَانَهُ وتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزّه الله وعلا عن أن يكون له شريك في مُلكه وخلقه.

﴿يُنَزِّلُ الملائِكَةَ بالرُّوحِ مِنْ أمْرِهِ﴾ ينزّل الله الملائكة بالوحي الإلهي المشتمل على الشرائع السماوية والأخلاق السامية بإرادته وأمره ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على من يصطفيهم الله من عباده ليكونوا رسلاً منه إلى الناس ليبلّغوهم الوحي الإلهي. وعبّر الله عن الوحي بكلمة «الروح» كما عبّر عنه بالقرآن لأنه يحيي موات القلوب التي أماتها الجهل والضلال فيحييها بالهداية، كما تحيي الأرواح الأبدان، وفي هذا المعنى يخاطب الله رسوله محمداً ﷺ كما جاء في القرآن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومهمة رُسل الله التي كلّفوا بها: ﴿أنْ أَنْذِرُوا أنَّهُ لا إلَه إلاَّ أنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي خوّفوا الناس من مخالفة أمر الله، وبيّنوا لهم أنه لا إله إلاّ الله، وأن عليهم أن يعبدوه وحده، وأن يحذروا غضبه إن هم عصوه.



﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ ﴾

شرح المفردات

نطفة: ماء الرجل والمرأة أي منيّهما.

خصيم: شديد المخاصمة والمجادلة بالباطل.

الأنعام: الإبل والبقر والغنم والماعز.

تريحون: ترجعونها من المراعي إلى الحظائر آخر النهار.

تسرحون: تذهبون بها إلى المراعي باكراً أول النهار.

تحمل أثقالكم: تحمل الإبل أحمالكم الثقيلة.

بشق الأنفس: بمشقة وتعب.

قصد السبيل: بيان الطريق المستقيم.

جائر: مائل عن طريق الحق والهدى.

من مظاهر قُدْرَةِ الله ونِعَمِهِ على خلقه

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن بعض مظاهر قدرة الله تعالى في هذا الكون فيقول: ﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ والأَرضَ بالْحَقِّ﴾ أي الله خلق السماوات والأرض بالحق وعلى أساس من الحكمة والتقدير المحكم، للدلالة على قدرته وأن يعبده الناس

وحده، فيجب أن لا يميلوا عن عبادة الله إلى معبودات باطلة لأن في ذلك شقاءهم ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ترفّع وتقدّس الله عن أن يكون له شريك في ملكه.

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ والله خلق الإنسان من نطفة وهي منيّ الرجل الذي يحتوي على الحيوانات المنوية، ومنيّ المرأة الذي فيه البويضة التي تُلقّح بإحدى الحيوانات المنويّة، وهذه أولى مراحل خلق الإنسان. ومن المعلوم أن منيّ الرجل يخرج من مخرج البول وهذه إشارة إلى مهانة نشأته حتى لا يغتر بنفسه ويتكبّر في الأرض ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي فإذا هذا الإنسان بعد تكامله بشراً مخاصم لخالقه، منكر له، كافر بنعمته، مجادل في حصول البعث وأمور الدين، وهو ظاهر الخصومة واضحها.

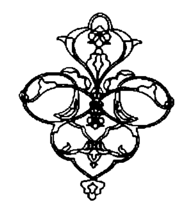
﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُم﴾ والإبل والبقر والغنم والماعز خلقها الله لكم أيها الناس ﴿فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ فيها تتدفأون من البرد بما تتخذون من أصوافها وأوبارها ملابس وأغطية وسواها، وفيها منافع من ركوب ظهور الإبل للسفر، واستعمال البقر في الحرث والريّ، والانتفاع بألبانها ونسلها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ومن لحومها كلها تأكلون.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ ولكم في الأنعام زينة وجمال وقت ترجعونها إلى مأواها مساء ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ووقت خروجها صباحاً إلى المرعى.

فالقرآن يلفت نظر الإنسان إلى الجمال المتمثّل بهذه الأنعام، وليست النعمة منها مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل أيضاً إمتاع النظر بما فيها من جمال يذكّر الإنسان بخالقه وعظمة إبداعه.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لم تكونُوا بَالِغِيهِ إلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ﴾ أي وتحمل الأنعام ولا سيما الإبل أحمالكم الثقيلة إلى بلد لم تكونوا لتصلوا إليه بدونها إلا بجهد وإرهاق ومشقّة ﴿إِنَّ رَبَّكُم لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إن ربكم رؤوف بخلقه حيث خلق لهم هذه المنافع وهو عظيم الرحمة بهم حين سخرها لهم.

﴿وَالْخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالْحَميرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ومن نِعَمِ الله عليكم أيها الناس أن خلق لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوا ظهورها في تنقّلاتكم وسفركم، وجعلها زينة لكم تُدخل السرور إلى قلوبكم ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ هذه الجملة فيها إعجاز للقرآن حيث إنها جاءت معطوفة على وسائل الركوب من الحيوانات المذكورة، أي أن الله سيجعل للناس وسائل للركوب في المستقبل غير التي كانت معروفة في عصر نزول القرآن منذ أربعة عشر قرناً، وها هو الإنسان يتوصل إلى اختراع السيارات والقاطرات والطائرات التي يستخدمها في تنقلاته وسفره بما ألهمه الله لصنعها، وبما سخّر له من المعادن والطاقة من نفط وفحم حجري وكهرباء وذرّة وغيرها. ولا يكتفي القرآن بذكر الركوب بل يضيف إليه الزينة، وها نحن الآن نشاهد كثيراً من الزينة التي تضاف إلى السيارات بما يجعلها متعة للنظر ﴿وعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ وعلى الله بمقتضى فضله ورحمته أن يبيّن لكم الطريق المستقيم الذي يوصلكم إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ ومن الطرق ما هي مائلة ومنحرفة عن الحق وهي طرق ملل أهل الكفر ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أجْمَعِينَ﴾ ولو شاء الله هدايتكم جميعاً أيها الناس لهداكم وحملكم على الطريق المستقيم، ولكنه خلق لكم عقولاً تميّزون بها بين الخير والشر، وترككم لاختياركم ليحصل لكم من أعمالكم الثواب والعقاب في الآخرة.



﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

شرح المفردات

تسيمون: ترعون أنعامكم.

ذرأ: خلق.

يذّكّرون: يتعظون «أصلها يتذكرون».

مواخر فيه: تجري فيه السفن جرياً تشق الماء بصدورها.

ولتبتغوا: ولتطلبوا.

رواسي: جبالاً ثوابت.

أن تميد بكم: لئلا تتحرك وتضطرب بكم.

علامات: معالم للطرق تهتدون بها.

سبلاً: طرقاً.

من نِعَمِ اللّه على الناس

ويتابع القرآن فيذكر بعض نعم الله على الناس بقوله:

﴿هُوَ الَّذي أَنْـزَلَ مِن السَّماءِ مَاءً لَكُم مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي أن الله سبحانه هو الذي أنزل من السحاب ماء لتشربوا منه وتشرب دواب الأرض ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فيه تُسِيمونَ﴾ ومن الماء ينبت الشجر، والعشب الذي ترعاه مواشيكم، فكل ما ينبت من الأرض فهو شجر أكان له ساق أم لا.

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْـتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ﴾ ومن الماء ينبت الله الزرع وقدّم القرآن ذِكْرَهُ على غيره لأنه أصل الأغذية وهو الحبوب والخضار التي يقتات بها أكثر الناس. وأتبعه بالزيتون لمنافعه الكثيرة. ثم ذكر النخيل لكونه غذاء وفاكهة، ثم أتبعه بذكر العنب لفوائده الجمة، وأتى بالعنب بصيغة الجمع (أعناب) لاشتماله على الأصناف المختلفة في الحجم واللون والمذاق الطيب ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ لم يعدّد القرآن كافة الثمرات لأنها كثيرة، وبالأخص فإن كل منطقة تختص بثمار خاصّة بها ولذا عمَّمَ القرآن فقال: مِن كل الثمرات ليشمل كل ثمار الأرض ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن ما ذُكِرَ سابقاً لدليل وبرهان على وجود الله ووحدانيته وعظيم قدرته لقوم يتدبّرون في أسرار النبات الذي خلقه الله على هذا الشكل والخواص.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهارَ﴾ وسخّر لكم أيها الناس الليل والنهار يتعاقبان عليكم فجعل الليل لسكنكم وراحتكم، كما جعل النهار لتتصرفوا فيه للحصول على رزقكم وإنجاز أعمالكم ﴿وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ﴾ وذلّل الله لكم الشمس التي تمدكم بالدفء والضوء، والقمر لتعرفوا به عدد الأشهر والسنين ﴿والنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ وخلق الله النجوم مذللات تحت إرادته وأمره لتهتدوا بها في الظلمات في سفركم ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن في ذلك لعلامات وأدلّة على وجود الله ووحدانيته للذين لهم عقول ينتفعون بها، وليعلموا أن الذي خلق ذلك وأبدعه هو الله سبحانه. والجدير بالذكر أن كلمة (الآيات) هنا جاءت بصيغة الجمع لسعة آفاق هذه العوالم الكونية.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُم فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلوانُهُ﴾ وما خلق الله لكم في الأرض من أنواع الحيوانات والنبات والجماد، وما جعل في جوف الأرض من المعادن المختلفة الألوان والفوائد، جعل لكم ذلك لمنافعكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ إن في هذا كله لأدلة على قدرة الله وحكمته ورحمته لكلّ من تَدبّر فاتعظ بما رآه.

﴿وَهُوَ الَّذي سَخَّر الْبَحْرَ﴾ وهو الله الذي ذلل البحر، وجعله في خدمتكم أيها الناس لتنتفعوا به للتجارة والسفر والصيد ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا﴾ ومن البحر تأكلون لحم الأسماك طريّاً، والسمك يعتبر الغذاء الأساسي لكثير من الشعوب لما يحتويه من بروتينات وفيتامينات وفوائد جمة ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي وتستخرجوا من البحر اللؤلؤ والمرجان تصنعون بهما حليًا لتتزين بها نساؤكم ﴿وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فيهِ﴾ وترى السفن تشق عباب الماء مقبلة ومدبرة.

تأمل أيها القارىء كيف استعمل القرآن السفن المواخر بصيغة الجمع للدلالة على السفن الكثيرة، وهذا المعنى لم يظهر جليًا إلا في هذا العصر حيث كثرت السفن كثرة عظيمة، إما لاستخدامها للسفر ولشحن البضائع والصيد، وإما لاستعمالها في الأغراض البحرية، فمنذ أربعة عشر قرناً ـ زمن نزول القرآن ـ لم يكن للبحر هذا الطابع الحالي المميّز بكثرة البواخر، كل ذلك يعطينا البرهان على أن القرآن وحي إلهي ليس من كلام بشر، لأنه تحدّث قديماً عن أشياء ستتحقق في المستقبل وهذا ما حصل. ثم يتابع القرآن كلامه عن البحر ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ولتطلبوا من فضل الله في البحر كثيراً من المنافع لكم ﴿وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ أي لتعرفوا نِعَمَ الله عليكم فتقوموا بالشكر له.

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُم وَأَنْهَاراً﴾ وجعل الله في الأرض جبالاً ثابتة تحفظ اتزانها في دورانها حتى لا تضطرب في حركتها، كما جعل في الأرض أنهاراً عذبة لينتفع بها الإنسان والحيوان ولتوفر الريّ للنبات ﴿وَسُبُلاً لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ﴾ وجعل لكم ربكم في الأرض طرقاً كثيرة ممهدة تسلكونها لكي تهتدوا بتلك الطرق إلى مآربكم من تجارة وغيرها مما يدرّ عليكم الرزق.

﴿وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وجعل في الأرض علامات يستدل بها الناس على الطريق المطلوب سلوكه كالجبال والأنهار وغير ذلك، وهم بالليل يستعينون بالنجوم في أسفارهم في البر والبحر إلى البلد الذي يقصدون الوصول إليه، هذا ما كان يحصل في زمن نزول القرآن قبل اختراع البوصلة ووسائل النقل السريعة، واللاسلكي، والعقل الألكتروني الذي يرسم للطائرات والسفن الطريق أو الجهة المراد سلوكها.

ثم يعقب الله على ذلك كله بقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ﴾ هذه الآية جاءت على سبيل الإنكار لمن ترك عبادة الله وتوجه إلى عبادة غير الله من أصنام وغيرها. ومعنى الآية: أفمن يخلق السماوات والأرض ومن فيهن وهو الله عز وجل كمن لا يخلق شيئاً وهو مخلوق لله لا يملك النفع ولا الضر لنفسه أو لغيره، هل من العقل والمنطق أن تساووا بين من يخلق كل شيء وبين من لا يخلق شيئاً ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تلاحظون ذلك فتتعظوا وتعرفوا خطأ ما أنتم عليه من اعتقادات باطلة، وفي التذكر كفاية لمن له عقل فيعتبر.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ بهذه الآية الموجزة يبين الله فضله على الإنسان لكي يقوم بواجب الشكر والثناء له سبحانه ويخصه بالعبادة دون سواه. ومهما حاول الإنسان تعداد النعم التي أنعم الله بها عليه فلن يستطيع إحصاءها، ولكن لا بأس أن نشير إلى بعض هذه النعم القريبة من المشاهدة وهي: السمع والبصر والعقل واليدان والأصابع والرجلان التي يستعين بها الإنسان على قضاء حوائجه، بالإضافة إلى ما سخره الله للإنسان من نبات وحيوان وبحار وأنهار ومَعَادن شتى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك مع استحقاقكم للحرمان منها بسبب عدم شكره سبحانه وعصيانكم له.

﴿واللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ والله يعلم ما تضمرونه في قلوبكم من الأمور وما تظهرونه منها لا يخفى عليه شيء من سركم وجهركم فيثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته.

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

شرح المفردات

يَدْعُونَ من دون الله: يعبدون غير الله.

أيّان: متى.

يُبعثون: يُحيون من جديد بعد الموت يوم القيامة للحساب.

لا جرم: حقاً، أو لا محالة.

أساطير الأولين: أباطيل وخرافات سطّرها الأقدمون.

أوزارهم: ذنوبهم.

ساء ما يزرون: ساءت الذنوب التي يحملونها.

مناقشة المشركين بالله

ويتابع القرآن فيناقش المشركين العرب الذين يعبدون الأصنام:

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شيئاً﴾ يدعون هنا بمعنى: يعبدون، أي والذين يعبدهم المشركون من غير الله من أصنام هي عاجزة عن أن تخلق أي شيء لأنها جمادات ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وهي مخلوقة وليست بخالقة صنعها النحاتون، وهذا ما قاله إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥] ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي هذه الأصنام هي أموات لا تعتريها الحياة بوجه من الوجوه، فهي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وما تدري

هذه الأصنام متى يبعث عابدوها أحياء من القبور يوم القيامة، وفي ذلك تهكم على المشركين من جهة أن أصنامهم التي يعبدونها لا تعلم وقت بعثهم أحياء بعد الموت ليجازوا على عبادتهم إياها فكيف يرتجون منها الثواب والعقاب؟

وبعد أن ثبت بطلان ألوهية غير الله خاطب الله الناس بقوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فإلهكم إلّه واحد لا شريك له فأخلصوا له العبادة ولا تجعلوا له شريكاً ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ فالذين لا يصدقون بالحياة الآخرة وما فيها من عقاب على الشرك بالله، قلوبهم جاحدة لوحدانية الله ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي وهم مستكبرون عن قبول الحق لا يؤثر فيهم وعظ.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي لا محالة أن الله تعالى يعلم ما يخفونه وما يعلنونه من عقائد وأقوال وأفعال وسيحاسبهم على كل ذلك ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ إن الله لا يحب المستكبرين الذين لا يقرون بوحدانية الله ولا يستجيبون لأنبيائه. والاستكبار رفع النفس فوق قدرها والتعالي على الناس وجحود الحق، وأمثال هؤلاء لا يرجى منهم نفع.

ثم يبين القرآن محاولات المشركين الإساءة إلى الإسلام، فقد كان الوافدون على مكة للحج أو للتجارة يسألون كفار مكة عن هذا النبي الذي ظهر بينهم ورأيهم فيه فكانوا يسيئون إلى النبي ﷺ وإلى القرآن في جوابهم لينفّروهم من الاستماع إليه واتّباعه وهذا ما حكاه الله عنهم بقوله:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإذا سئل هؤلاء المشركون عما أنزله الله من الوحي على محمد ﷺ زعموا أنها حكايات ملفّقة وخرافات سطّرها السابقون فنقلها محمد عنهم وصار يرددها.

وهذا ما يردده حالياً بعض الملحدين والمتعصبين من أهل الملل الأخرى زوراً وبهتاناً بدون أن يتحققوا مما يشتمل عليه القرآن من الهدى والحق والبراهين الواضحة التي تثبت أنه وحي إلّهي.

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُم كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ أي لتكون عاقبة أمرهم على موقفهم هذا أن يحملوا ثقل ذنوبهم التي اقترفوها تامة يوم القيامة ليعاقبوا عليها ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِين يُضِلُّونَهُم﴾ أي وسيحملون أيضاً بعض ذنوب من أضلوهم وأبعدوهم عن الإسلام ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يضلونهم غير عالمين بأن ما يدعونهم إليه هو طريق الضلال، والتنبيه على أن جهلهم لن يكون لهم به عُذْرٌ عند الله، إذ كان عليهم أن يميزوا بين الحق والباطل ﴿أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس ما يحملونه من الذنوب، ذنوبهم وذنوب من أضلّوهم. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيء».

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

شرح المفردات

مكر: دبّر الشر خفية.

فأتى الله بنيانهم من القواعد: فقوض الله بنيانهم من أساسه.

يخزيهم: يذلهم ويهينهم بالعذاب.

تشاقّون: تخاصمون وتعادون الأنبياء والمؤمنين بسببهم.

الخزي: الذل والإهانة.

فألقوا السلم: أظهروا المسالمة والانقياد والإذعان.

مثوى المتكبرين: مأواهم ومقامهم.

مصير الكفار الذين يضطهدون رسُلَ اللّه

وبعد أن بيّن القرآن محاولات كفار مكة لصرف الناس عن الإسلام تأتي الآيات محذّرة لهم من أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم السابقة من هلاك جزاء تآمرهم على رسُل اللّه: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ أي قد مكر الكفار الذين عاشوا قبل كفار مكة برسل الله فجحدوا دعوتهم ودبروا الشر خفية للقضاء عليهم ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِنَ القَوَاعِدِ﴾ فكان عاقبة مكرهم أن خرّب الله بناءهم من أصوله وأساسه بزلزال أو غيره ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فسقط عليهم السقف وكانوا تحته بعد تصدع قواعد البناء فهلكوا شر هلاك ﴿وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ وأتاهم عذاب اللّه من حيث يظنون أنفسهم في أمان ومن حيث لا يتوقعون.

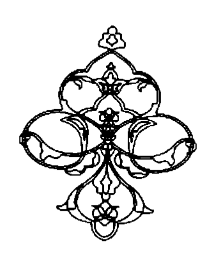
قد يكون ذلك وصفاً لحقيقة إهلاكهم، وقد يكون في ذلك تشبيه لفساد ما دبروا من المكايد، وما أبرموا من هدم دين الله، فأحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانهم فوقهم فهلكوا.

﴿ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يُخْزِيهِم﴾ وبالإضافة إلى عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة الذي فيه الذل والهوان لهم، ولهم مع ذلك العذاب التوبيخ لهم من الله حيث يقول لهم: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذين كُنْتُم تُشَاقُّونَ فِيهِم﴾ أي أين هؤلاء الذين اتخذتموهم شركاء لي في العبادة والذين كنتم تخاصمون الأنبياء والمؤمنين في شأنهم وترفضون دعوتهم، لِمَ لا يحضرون معكم ليشفعوا لكم ويدفعوا عنكم ما ينزل بكم من العذاب ﴿قَالَ الَّذِين أُوتُوا العِلْمَ إِنَّ الخِزْيَ الْيَوْمَ والسُّوءَ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ قال الذين يعلمون الحق من الأنبياء والمؤمنين والملائكة: إن الذل والهوان والعذاب اليوم واقع على الكافرين بالله ورسله، لقد قالوا لهم ذلك شماتة بهم.

ثم يخبر الله تعالى عن حال المشركين عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم

لقبض أرواحهم: ﴿الَّذِين تَتَوفَّاهُمُ الملائِكَةُ ظالمي أنفُسِهِمْ﴾ أي هؤلاء الكافرون تقبض أرواحهم الملائكة وهم ظالمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي استسلموا للحق وانقادوا لأمر الله حين عاينوا العذاب قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي ما كنا نعمل في الدنيا من معصية، وما كنا نشرك بربنا أحداً، قالوا ذلك من شدة الخوف ولتخليص نفوسهم من العذاب ﴿بلى﴾ رَدٌّ عليهم من قِبَلِ الله أو من قِبَلِ الملائكة، أي بلى قد كنتم تعملون السوء ﴿إنَّ اللَّه عَلِيمٌ بمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ والله عالم بما كنتم تعملونه من المعاصي والكفر.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّم خَالِدينَ فِيهَا﴾ قد يكون المراد بالدخول شهود أرواحهم دار العذاب، أو دخولهم جهنم يوم مماتهم بأرواحهم وتعذب أجسادهم في قبورهم، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم ودخلوا جهنم من أبوابها السبعة التي أُعدّت للكفار والعصاة ليبقوا فيها خالدين لا يبرحونها أبداً ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوى المتَكَبِّرينَ﴾ فبئست جهنم مقراً ومقاماً لكل متكبر عن الانصياع للحق ومترفع عن عبادة الله وحده والاستجابة لرسله.



﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

شرح المفردات

جنات عدن: جنات استقرار واطمئنان، وجنات جمع جنة وهي اسم لدار النعيم في الآخرة.

طيبين: طاهرين من دنس الشرك والمعاصي.

المتقين: اتقاء الله هو تجنب عذابه بالعمل بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه.

هل ينظرون: هل يتوقعون.

حاق بهم: أحاط أو نزل بهم.

مصير المتقين في الآخرة

وفي مقابل الكافرين الذين سبق ذكرهم يعرض لنا القرآن صورة عن المؤمنين المخلصين الذين يستحقون نعيم الجنة في الآخرة:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وسأل الوافدون على مكة المؤمنين المتّقين ربهم عن حقيقة ما أنزل الله على محمد بقولهم: ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُم قَالُوا خيْرًا﴾ أي ما الذي أنزله ربكم على محمد؟ فأجابوا بقولهم: أنزل خيراً كثيراً وهو القرآن، ففيه الخير كله فهو هدى ورحمة لمن عمل به. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا في هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ الكلام هنا مستأنف ليس من جملة كلام الذين اتقوا ربهم بل هو ابتداء كلام من الله، وفيه يثني

على من أجابوا السائلين عن القرآن بأن الله أنزل خيراً، كما وصفهم الله بأنهم أحسنوا في هذه الدنيا إحساناً كريماً ووعدهم على ذلك بحسنة منه وهي الحياة الطيبة في الدنيا واستحقاق المدح والثناء منه وغير ذلك من المكرمات ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ وثوابهم في الآخرة خير مما أُوتوا في الدنيا وهو الجنة ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ المتَّقِينَ﴾ ولنعم الجنة دار المتقين الذين اتقوا عقاب ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي أن الدار التي وُعِدَ بها المتقون هي جنات إقامة واستقرار يدخلونها ليتمتعوا بنعيمها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحتِهَا الأنهارُ﴾ تجري من خلال قصورها وأشجارها الأنهار ﴿لَهُم فِيهَا مَا يشَاؤُون﴾ لهم في هذه الجنات ما تشتهيه أنفسهم وتقرّ به أعينهم ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ المتَّقِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوْفى يجزي الله كل من يتقي ربه بالابتعاد عن الشرك والمعاصي.

﴿الَّذِين تَتَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي هؤلاء المتقون تتوفاهم الملائكة طيبة نفوسهم بالخصال الحميدة ﴿يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ أي تقول لهم الملائكة: أمان لكم وتحية لكم من الله ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ ادخلوا الجنة فإنها معدة لكم بسبب ما وفقكم الله إليه من ثباتكم على التقوى وبما قدمتموه من عمل صالح.

ثم تعود بنا الآيات إلى إنذار المشركين: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الملائِكَةُ﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المشركون إلاّ أن تأتيهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم وهم ظالمو أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أو يأتي أمر الله بإهلاكهم جميعاً ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ أي مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب لآيات الله فَعَلَهُ الكفار من الأمم السابقة فأتاهم أمْرُ الله بإهلاكهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ أي بإحلال سخطه عليهم وإهلاكهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ﴾ بما ارتكبوا من القبائح وبما عصوا ربهم ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ فأصابهم عقوبة ذنوبهم وأعمالهم السيئة ﴿وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم العذاب الذي كانوا ينكرونه ويستهزئون به.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

شرح المفردات

من دونه: من غيره.

فهل على الرسل: فهل من واجب الرسل.

بعثنا: أرسلنا.

اجتنبوا الطاغوت: اتركوا كل معبود غير الله وكل داعٍ إلى ضلالة.

حقّت: ثبتت ووجبت.

حقيقة المشيئة الإلهية في خلقه

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على المشركين الذين يزعمون أن مشيئة الله هي التي ارتضت لهم ولآبائهم عبادة الأصنام وتحريم ما أحله الله لهم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شيءٍ نَحْنُ ولا آباؤنَا﴾ أي وقال الذين أشركوا وهم الذين عبدوا الأوثان والأصنام من دون الله: ما نعبد هذه الأصنام نحن وآباؤنا الذين نقتدي بهم في عبادتهم إياها، إلاّ لأن الله قد رضي عن عبادتنا لها ولو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره لما عبدنا ذلك ﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شيءٍ﴾ ولا حرّمنا أكل بعض الذبائح والأطعمة إلاّ لأنه قد رضي ذلك منا، ولو كان كارهاً ذلك لَمَا تركنا نفعل ذلك، ولم يمكّنّا من عبادة الأصنام، وتحريم ما حرمنا

على أنفسنا من الأطعمة. وإنما قالوا ذلك تكذيباً لرسول الله واستهزاء به، وللاحتجاج بالمشيئة الإلهية على سلوكهم السيىء.

واعتقادهم هذا هو خطأ في فهم المشيئة الإلهية وتجريد للإنسان من أهم خصائصه وهو العقل الذي على ضوئه وضوء الشرائع التي أنزلها الله على رسله عليه أن يختار سلوك الطريق السليم، فمشيئة الله تتجلى في إرسال الرسل لهداية الناس وإرشادهم سبيل الهدى والتحذير من سلوك سبل الضلال، ومشيئة الإنسان تتوضح في اختياره لأحد السبيلين. وقد جاء في القرآن في الكلام عن الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وجاء في القرآن أيضاً: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

فالقرآن ينفي بهذا النص السابق عقيدة الجبر ـ أي أن الإنسان مجبر في أفعاله مسيّر ـ التي ذهب إليها كثير من العصاة والمنحرفين لتبرير سلوكهم السيىء. فالله لا يأمر عباده إلاّ بالخير، ولا ينهاهم إلاّ عن الشر، وهو سبحانه يعاقب المذنبين أحياناً في الدنيا بالإضافة إلى معاقبتهم في الآخرة، ولو كان الإنسان مجبراً في أفعاله لانتفى الثواب والعقاب في الآخرة من أساسه، وتأكيداً لهذا نرى في القرآن قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ويقول تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

ثم نعود إلى تتمة الآية ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذين مِنْ قَبْلِهِم﴾ أي مثل هذا الزعم الباطل فعل الذين من قبلهم من الأمم الذين أشركوا بالله وحرّموا ما أحله الله لهم ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُل إلاّ البلاغُ المبينُ﴾ فما كانت وظيفة الرسل إلاّ إبلاغ الرسالة الإلهية وإيضاح طريق الحق ولم يكن من وظيفتهم إجبار الناس على الإيمان.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾ أي ولقد أرسلنا في كل أمة من الأمم السابقة رسولاً خاصاً بهم كما أرسلنا فيكم رسولاً ﴿أَنِ اعبُدوا اللَّهَ واجْتَنِبُوا

الطَّاغُوتَ﴾ وكان كل رسول يقول لقومه: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً وأخلصوا له العبادة واحذروا أن يغويكم الشيطان وكل من يدعونكم إلى الضلالة ﴿فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فمن تلك الأمم من يسّر الله لهم الهداية إلى الحق فعبدوا الله وحده وأطاعوه ﴿وِمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾ ومنهم من وجبت وثبتت عليه الضلالة والبعد عن الحق لإصرارهم على الكفر والعناد ﴿فَسِيرُوا في الأرض فانظروا كيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ المكذِّبينَ﴾ فسيروا أيها المشركون في الأرض وانظروا إلى آثار العذاب والهلاك الذي حلّ بالقوم الظالمين كقوم عاد وثمود وقوم لوط لعلّكم تعتبرون بما حلّ بهم.

﴿إنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإن اللَّه لا يهدي من يُضِلُّ﴾ أي إن تطلب يا محمد بجهدك هداية هؤلاء المشركين إلى الإيمان بالله فإن ذلك لا ينفعهم، لأن الله لا يهدي من اختار طريق الضلالة وترك طريق الهدى ﴿ومَا لَهُم مِنْ نَاصِرينَ﴾ وهؤلاء الذين اختاروا طريق الضلالة ليس لهم من ناصرين ينصرونهم من الله إذا أراد عقوبتهم.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

شرح المفردات

جهد أيْمانهم: أي مجتهدين في الحلف مبالغين فيه.

لنبوئنهم في الدنيا حسنة: لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة.

وعلى ربهم يتوكلون: أي يفوضون إليه أمرهم ويعتمدون عليه.

مدى قُدرة اللّه

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن الذين لا يعتقدون بحصول البعث مبيناً لهم بطلان رأيهم:

﴿وَأَقْسَمُوا باللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي اقسموا بالله غاية طاقتهم في القسم ﴿لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ أي لا يقع بعث بعد الموت، وهذا استبعاد منهم لحصوله من حيث إن الميت يتحلل جسمه وتفنى عظامه. ويروى في أسباب نزول هذه الآية أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ حَلَفَ عند رجل من المكذبين بالبعث فقال: والذي يرسل الروح من بعد الموت، فقال الملحد: وإنك لتزعم أنك مبعوث من بعد الموت، وأقسم بالله مشدّداً في حلفه مبالغاً فيه: لا يبعث الله من يموت ﴿بَلَى﴾ وهذا رد عليه وعليهم، أي بلى يبعثهم الله ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حقًّا﴾ أي وَعَدَ الله بذلك وعْداً حقاً لا خلف فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر الناس لا يعلمون ذلك بسبب جهلهم قدرة الله وصفات كماله.

نعم إن كثيراً من الناس على وجه الأرض ينكرون البعث والثواب والعقاب في الآخرة على ما فعلوه في دنياهم وهذا مما أشاع المنكرات والظلم بين الأفراد والجماعات.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي إن الله يبعث كل من يموت من البشر، مؤمنين وكافرين، ليبين لهم الحق الذي اختلفوا فيه وليعلم المؤمنون أنهم على حق ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِين كَفَرُوا أَنَّهُم كانوا كَاذِبين﴾ وليعلم الكافرون أنهم كاذبون في قسمهم إن الله لا يبعث من يموت.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيءٍ إِذَا أَرَدنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ في هذه الآية من بيان القدرة الإلهية وجزالة اللفظ وقصر العبارة ما يبهر العقول، ففيها تمثيل لسهولة إيجاد الشيء من الله وسرعة حصوله. وليس المراد أن الله إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون فإنه تعالى ليس بحاجة لذلك. فإذا كان بمقدور الله أن يوجد أي شيء بهذه

السهولة والسرعة التي لا تتصورها العقول فكيف يصعب عليه أن يبعث الموتى أحياء يوم القيامة؟ هذا وقد صوَّر القرآن مبلغ قدرة الله على الخلق والبعث في موضع آخر من القرآن الكريم حيث قال الله سبحانه: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٨].

ثناء من الله على المهاجرين في سبيله

ولمّا كان المشركون قد اضطهدوا المسلمين حتى ألجأوهم إلى الهجرة من ديارهم بيّن الله ما أعد للمهاجرين من خير في الدنيا وثواب في الآخرة فقال:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي والذين فارقوا قومهم ومنازلهم وأوطانهم وذهبوا إلى بلاد أخرى احتساباً لنيل الأجر من الله، واكتساباً لرضائه من بعد ما نالهم الأذى من الكفار ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ لنرزقنهم في الدنيا رزقاً حسناً، ولنسكننهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها.

هذه الآية تبين معجزة من معجزات القرآن في حصول أمر غيبي تحقق بعد فترة وجيزة من الزمن، فبعد هجرة المسلمين من مكة بسبب ما نالهم من ظلم حصل أن استقبلهم إخوانهم المسلمون في المدينة المنورة خير استقبال، وتقاسموا وإياهم السكن والأموال، كما أنّ المهاجرين إلى الحبشة لقوا الترحاب والضيافة والحماية من مليكها. كذلك يفهم من الآية انتصار المسلمين على عدوهم وهذا ما تحقق فعلاً ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ وهذه بشرى أيضاً للمهاجرين بأن جزاء أعمالهم في الآخرة أفضل مما سيحصلون عليه في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون ما سينالون من خير لكان صبرهم أشد، ولما تألموا لِمَا أصابهم من آلام الهجرة ومشاقها.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ﴾ وهؤلاء المهاجرون هم الذين صبروا على تحمّل العذاب في سبيل الله وفوضوا أمرهم إلى الله وحده، وعليه كانوا يعتمدون في أن يصرف عنهم أذى الكفار واضطهادهم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُۤ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾

شرح المفردات

أهل الذكر: العلماء بالتوراة والإنجيل.

بالبينات: بالحجج والبراهين الواضحات.

والزبر: الكتب السماوية.

الذكر: القرآن.

مكروا السيئات: عملوا السيئات بمكر وخبث.

أن يخسف الله بهم الأرض: أي يجعل الله الأرض تنشق وتبتلعهم.

في تقلّبهم: أي في أسفارهم للتجارة.

فما هم بمعجزين: فليسوا بممتنعين على الله وليس الله عاجزاً عن معاقبتهم.

على تخوّف: متخوفين متوقعين للهلاك.

يتفيأ ظلاله: تميل ظلاله وتنتقل من جانب إلى آخر.

سجّداً لله: خاضعين له.

داخرون: منقادون له صاغرون خاضعون.

حقيقة النبوة وإنذار للكافرين

ثم ينتقل القرآن إلى دحض شبهة أثارها منكرو النبوة وهي قولهم: الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله إلى خلقه من البشر بل يجب أن يكون من الملائكة، وهنا يأتي الردّ عليهم بقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلاَّ رِجالاً نُوحي إلَيْهِمْ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد إلى أيّ أُمة من الأمم رسُلاً منَّا يدعونهم إلى عبادتنا وحدنا وطاعتنا إلاّ كانوا رجالاً من بني آدم نُوحي إليهم بالشريعة التي يجب أن يأخذوا بها ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ﴾ فاسألوا علماء التوراة والإنجيل ليخبروكم أن الله ما أرسل إلى الأمم السابقة رسلاً إلاّ كانوا بشراً لا ملائكة إن كنتم لا تعلمون ذلك. وأرسلنا الرسل ﴿بالبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والبراهين الشاهدة على نبوتهم ﴿والزُّبُر﴾ أي وأنزلنا عليهم الكتب السماوية التي فيها الشرائع التي بلّغوها إلى قومهم ﴿وَأَنْزَلْنَا إلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ والذكر: هو القرآن. أي وأنزلنا إليك يا محمد هذا القرآن تذكيراً للناس وعظة لهم ﴿لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهِمْ﴾ لتبين للناس كافة ما يشتمل عليه القرآن من العقائد والشرائع وما التبس عليهم من الأحكام ﴿وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ﴾ وليتأملوا ما يحتويه القرآن من الحقائق والعبر فيتعظوا به.

ولنقف عند قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُون﴾ ففيه دعوة للتفكر بما يحتويه القرآن من آداب وأحكام ومعاملات للوقوف على أسرارها ومنافعها فيكون إيمان المسلمين بدينهم أصلب لا تزعزعه الشبهات والأباطيل وليكون ذلك أطوع للعمل بما فيه وعدم استبداله بالشرائع الوضعية.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِين مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي هل أَمِنَ كفار مكة الذين دبروا الشر خفية لرسول الله وتآمروا لقتله، وسعوا في إيذاء صحابته، ودبروا المؤامرات للقضاء على الإسلام؟ هل أغراهم حلم الله بهم، فاعتقدوا أنهم في مأمن من عذاب الله كما أصاب قبلهم المكذبين للرسل؟ والاستفهام في الآية بمعنى الإنكار أي يجب أن لا يأمنوا من عذاب الله، ثم هددهم الله بأربعة أنواع من العذاب:

أولاً: ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ أي أن يغوّر الله بهم الأرض فيصبحوا في جوفها كما خسف الله بقارون الذي اغتر بمالِهِ وبغى على قومه.

ثانياً: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ أو يأتيهم العذاب فجأة فيهلكوا كما فعل الله بقوم لوط.

ثالثاً: ﴿أو يَأْخُذَهُمْ في تَقَلُّبِهِم﴾ أو يهلكهم الله وهم في أسفارهم، أو في حال إقبالهم وإدبارهم، وذهابهم ومجيئهم في الليل والنهار ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ فلا يستطيعون الإفلات من عقاب الله، لأنه لا يعجزه شيء يريده.

رابعاً: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُم عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أو ينزل بهم العذاب في أنفسهم وأموالهم قليلاً قليلاً وهم في كل لحظة في عذاب من الخوف حتى يأتي الفناء عليهم جميعاً، أو بمعنى: أو يأخذ العذاب طائفة فتخاف التي تليها أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها ﴿فَإِنَّ رَبَّكُم لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي لا يعجل الله عقوبتكم بل يمهلكم رأفة منه ورحمة بكم مع استحقاقكم لعقوبته.

﴿أَوَلَمْ يَرَوا إلى مَا خَلَقَ اللَّه مِن شَيءٍ﴾ أي أغفل هؤلاء المشركون ولم ينظروا إلى ما خَلَقَ الله من الأجسام القائمة كالأشجار والجبال والأبنية ونحوها ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ﴾ والفيء هو الرجوع، فتفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار إلى غير الجهة التي كانت عليها ﴿عَنِ اليَمينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ وهذه الظلال تمتد تارة يميناً وتارة شمالاً تابعة في ذلك حركة الشمس نهاراً والقمر ليلاً، ففي أول النهار يكون الظل على حال ثم يتقلص الظل وقت زوال الشمس ثم يعود إلى حال أخرى في آخر النهار ﴿سُجّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ وهذه الظلال مستسلمة خاضعة للّه ومنقادة لأمره وهم صاغرون أذلاء.

وقد جعلت الظلال ساجدة لله إما لكونها منقادة لإرادته خاضعة لتدبيره أو لكونها واقعة على الأرض متلصقة بها على هيئة الساجدين، ولما كانت هيئة الظلال شبيهة بهيئة الساجدين أطلق عليها لفظ السجود على سبيل الاستعارة، والسجود ليس خاصاً بالظلال بل كل ما في الكون يسجد لله وهذا ما ذكرته الآية الكريمة عقب ذلك:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا في السَّمٰوات وَمَا في الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ والملائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي ولله يخضع ما في السماوات وما في الأرض مما يدب عليها من الحيوانات التي تشمل الإنسان، وكذلك تسجد الملائكة الذين في السماء وهم لا يستكبرون عن عبادة الله والخضوع له. فسجود المؤمنين والملائكة لله تعالى سجود طاعة وعبادة، وسجود غيرهم سجود خضوع وتسخير بمعنى أنها لا تستطيع أن تستعصي على ما يريد الله منها.

ولنقف أمام قوله تعالى: ﴿وَلِلَّه يَسْجدُ ما في السَّمٰوات ومَا في الأرض مِنْ دابة﴾ فالقرآن يشير إلى وجود كائنات حية في السماوات وهذا ما يحاول العلماء كشفه ولا ندري هل يوفقون في ذلك أم لا، والمحاولات مستمرة لسبر هذا السر العظيم الذي كشف عنه القرآن.

ثم يتبع الله الآية السابقة بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِنْ فَوْقِهِم وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ أي يخاف هؤلاء الملائكة ربهم الذي هو فوقهم بالقهر إن هم عصوه ويفعلون ما يأمرهم به.

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

شرح المفردات

فارهبون: فخافونِ واخشوا عقابي إن خالفتم أمري.

له الدين: وله الطاعة والانقياد أو الجزاء.

واصباً: واجباً لازماً.

الضر: الفقر والمرض.

تجأرون: تتضرعون ليكشف عنكم الضر.

تقرير وحدانية اللّه

بعد أن بيّن الله في الآيات السابقة خضوع جميع الكائنات له أتبع ذلك بالنهي عن اتخاذ شريك له بقوله:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي وقال الله لعباده لا تتخذوا لي شريكاً ولا تعبدوا إلَٰهين اثنين إنما أنا إله واحد ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾فإياي فاتقوني وخافوا عقابي إن عصيتموني وعبدتم غيري.

وقد كان الشرك شائعاً قبل الإسلام عند كثير من الأمم، كما كان المشركون العرب يعترفون بألوهية الله ولكنهم كانوا يتخذون معه شركاء من الأصنام يعبدونها لتقربهم إلى الله.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ﴾ وله سبحانه ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً وتصرفاً فهو الذي خلق الخلق وهو الذي يتصرف بهم كما يريد ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ وله الطاعة والانقياد والجزاء ثابتاً واجباً ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ هنا استفهام على سبيل التعجب، والمعنى: إنكم بعدما عرفتم أن إلَٰه العالم واحد، وأن كل ما في السماوات والأرض يخضع لله وأن الطاعة واجبة له، وأن الجزاء له وحده يوم القيامة، أفبعد العلم بهذا كله كيف يعقل أن يكون للإنسان رغبة في غير الله تعالى أو رهبة.

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ وما أحاط بكم ـ أيها الناس ـ من نعمة في أبدانكم من عافية وصحة، وفي أموالكم من نماء ووفرة، فالله هو المنعم بها عليكم والمتفضل بها وحده دون سواه ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ أي إذا مسكم المرض والبلاء والحاجة وكل ما تتضررون به ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي فإلى الله تتضرعون في كشف الضر عنكم ولا تلجأون إلى غيره.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ﴾ ثم إذا رفع عنكم ما أصابكم من الضر كالمرض

في أبدانكم، والشدة في معاشكم، وَفَرَّج البلاء عنكم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنكُم بِرَبِّهِم يُشْرِكُونَ﴾ أي ينسى بعضكم حق الله عليه بعبادته وحده فيجعلون له شريكاً ويعبدون معه غيره.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُم﴾[1] أي ذلك يحدث منهم لتكون عاقبة أمرهم إنكار فضلنا عليهم ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي فتمتعوا في هذه الدنيا إلى انتهاء آجالكم فسوف تعلمون عاجلاً أو آجلاً عاقبة أمركم حين ينزل بكم العذاب الشديد جزاء كفركم، وهذا وعيد من الله وتهديد لهم.

ويفهم مما سبق أن الناس عند كشف الضر عنهم ينقسمون إلى فريقين: فريق يبقى على مثل ما ظهر منه حال الضر من الالتجاء إلى الله فلا يغير موقفه هذا عند كشف البلاء، وفريق يتغير حالهم فيشركون بالله عند كشف البلاء، وهذا غاية الجهل والضلالة، لأنه لما شهدت الفطرة الإنسانية عند نزول البلاء والضر بأنه لا ملجأ إلاّ الله فعند زوال البلاء يجب أن يستمر الإنسان في صلته بربه ولا يشرك بعبادة ربه أحداً.



(١) ليكفروا: اللام الداخلة على يكفروا هي لام العاقبة والصيرورة.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

شرح المفردات

تالله: قسم بالله.

تفترون: تختلقون من الأكاذيب.

مسوداً: المراد من اسوداده كآبته وظهورالغم عليه.

كظيم: ممتلىء غيظاً.

أيمسكه على هون: ايبقيه عنده على هوان؟

يدسه بالتراب: يخفيه ويدفنه فيه.

مثل السوء: الصفة القبيحة.

من ضلالات المشركين وقبح أعمالهم

ويتابع القرآن الكلام على المشركين فيذكر بعض ضلالاتهم:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُون نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُم﴾ أي أن المشركين حين يكشف الله الضر عنهم بعد تضرعهم إليه يعودون فجأة إلى الشرك ويجعلون لأصنامهم التي لا يعلمون حقيقتها ومدى خسّتها، أو يسمونها بغير علم آلهة، يجعلون لها نصيباً مما أعطاهم الله من الزروع والأنعام وسائر الأرزاق تقرباً إليها **﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُم تَفْتَرُونَ﴾** أقسم الله بذاته الكريمة أنه سيسألهم يوم القيامة عن الذي اختلقوه من الكذب بأن الأصنام هي آلهة جديرة بالتقرّب إليها واستحقاقها للعبادة مع الله، والسؤال هنا سؤال تقريع وتوبيخ.

﴿وَيَجْعَلُون لِلَّهِ البَنَاتِ﴾ ومن جهل المشركين وتفاهة عقولهم أنهم جعلوا

الملائكة بنات الله، وهذا ما كان يقول به بعض القبائل العربية كقبيلة خزاعة وقبيلة كنانة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له عن هذا الزعم الفاسد ﴿وَلَهُم مَا يَشْتَهُونَ﴾ ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين وهم الذكور. فهؤلاء المشركون يكرهون أن يُرزقوا بالبنات فكيف يرضون أن ينسبوهنّ إلى الله، ويختاروا لأنفسهم أفضل مما يختارون لربهم، في حين أن الله منزّه عن الولد ذكراً كان أم أنثى.

ويصوّر الله كره المشركين للبنات بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بالأُنثَى﴾ أي وإذا أخبر أحدهم بولادة أنثى له ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي صار وجهه قاتم اللون كأنما علاه السواد من شدة الغم والكرب والحزن ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وهو ممتلىء غيظاً وغضباً ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ يحاول الاختفاء عن أعين الناس لئلا يروا كآبته من الألم الذي أصابه بسبب ما بُشِّر به من ولادة الأنثى ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أي أيُبقي هذا المولود الأنثى حيّاً فلا يقتله وهو يشعر بالمهانة فلا يورثها ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أم يئد ابنته هذه وذلك بأن يدفنها في التراب وهي على قيد الحياة ﴿أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ألا قَبُحَ حكمهم بوأد بناتهم، وقبح حكمهم حين ادعوا أن الملائكة بنات الله.

وقد كان وأد البنات موجوداً عند العرب فحرّمه الإسلام أشد التحريم وأوعد عليه بالعذاب يوم القيامة.

وقد كان سبب كره العرب للإناث أن البنات لا يقاتلن في الحروب، ولا يكسبن المال، وقد يقعن في السبي من جراء الغارات المستمرة المتبادلة عندهم فيجلبن لأهليهن العار، ولأنهن يعشن عبئاً على أهليهن ويتسببن في فقرهم كما يزعمون، أما بخصوص مسألة الفقر فقد جاء الخطاب في القرآن لهؤلاء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

هذه صور من الهمجية التي كانت عند بعض العرب قبل الإسلام فجاء الإسلام لمحاربتها والقضاء عليها ضمن مخطط الإصلاح العام لكل المساوىء التي كانت عندهم. فالأنثى نفس إنسانية تقوم عليها حياة الناس جميعاً، لأن الناس يولدون من

ذكر وأنثى، فإهانتها إهانة للجنس البشري بمجمله ووأدها قضاء على النسل البشري.

﴿للذين لا يُؤمِنونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي للذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي صفة القبح المشتملة على كراهتم للإناث ووأدهن خشية الفقر ووصفهم لله بأن له البنات ﴿وَلِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ ولله سبحانه أعلى الصفات من الغنى الكامل والجود الشامل والعلم الواسع وغير ذلك من صفات الكمال ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ والله سبحانه هو القوي الذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَرُ، الحكيم في أفعاله وتدبيره لخلقه.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

شرح المفردات

يؤخرهم إلى أجل مسمى: أي يؤخر الله موتهم إلى وقت حدّده لذلك فلا يموتون قبله.

لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون: لا يتأخرون عن الأجل المسمى أقل وقت ولا يتقدمون عنه.

ويجعلون لله ما يكرهون: أي ينسبون إليه البنات التي يكرهونها لأنفسهم.

أن لهم الحسنى: أن لهم العاقبة الحسنى في الآخرة.

لا جرم: حقاً أو لا محالة.

مفرطون: مقدّمون ومعجل بهم إلى النار.

زُيِّن: حسَّن.

وليهم: متولّي إغوائهم.

حلم الله على الظالمين

ثم ينتقل القرآن إلى بيان حلم الله على الناس وأنه سبحانه لا يعاجلهم بالعقوبة بسبب ظلمهم:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ أي لو يعاقب الله الكفار على معاصيهم وكفرهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُم إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ولكن الله يمهلهم إلى وقت معين فلا يعاجلهم بالعقوبة لعلّهم يطيعون ربهم وينجون من عذابه ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم﴾ فإذا جاء الوقت الذي عينه الله لهلاكهم ﴿لا يَسْتَأْخِرونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يتأخرون عن الأجل المسمى أقل وقت، ولا يتقدم عذابهم عن الوقت المحدد لهم. والتعبير عنه بالساعة لأنها في لغة العرب مَثَلٌ في القلّة، وليس المراد بها الساعة المعروفة عندنا والمقدّرة بستين دقيقة لأن ذلك اصطلاحٌ مستحدثٌ.

﴿وَيَجْعَلُون لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ وينسبون إلى الله سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات حيث يقولون: الملائكة بنات الله، وهو تكرار لما تقدم زيادة في توبيخهم ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُم الْكَذِبَ﴾ وتقول ألسنتهم الكذب ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي أن لهم العاقبة الحسنى عند الله ﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي حقاً إن لهؤلاء الذين يفترون الكذب عذاب النار يوم القيامة ﴿وَأَنَّهُم مُفْرَطُونَ﴾ وأنهم مقدمون إلى النار معجّلون للوصول إليها، أو بمعنى: منسيّون متروكون في النار.

ضلال الأمم السابقة

ثم يبين الله لرسوله محمد ﷺ أحوال الأمم السابقة وما كانوا عليه من ضلال:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يقسم الله بنفسه العليّة بأنه أرسل قبل محمد رسلاً إلى قومهم يدعونهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وطاعته وعدم اتخاذ شريك له ونبذ عبادة الأصنام ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم﴾ فحسّن الشيطان

لهذه الأمم ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ فهو متولي إغوائهم في العصر الذي كانوا يعيشون فيه، أو ناصرهم في الدنيا على زعمهم، ويحتمل أن يكون المراد يوم القيامة، وهو تهكم بهم ونفي الناصر عنهم على أبلغ الوجوه لأن الشيطان ليس بمقدوره نصرة أحد ﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذاب شديد الألم.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اْخْتَلفُوا فِيهِ﴾ المراد بالكتاب القرآن. أي وما أنزلنا عليك القرآن يا محمد إلا لتبين للناس ما اختلفوا فيه من الدين كوحدانية الله والحلال والحرام وسائر الأحكام الشرعية ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وليكون هداية تامة ورحمة عامة لقوم يؤمنون بالله، وبالقرآن الذي أنزلناه عليك.

ولقد طال الزمن على الكتب السماوية السابقة وتناولتها الأيدي بالتبديل والتحريف، وبلغت الاختلافات الدينية مبلغاً كبيراً أدت إلى صراعات دامية، ودخل الشك إلى قلوب أتباع الديانات حول كتب الدّين التي بين أيديهم، وأصبح العالم في حاجة إلى وحي من الله يجنبه مواطن الضلال ويبين له الحق من الباطل، فأرسل الله رسوله محمداً إلى الناس جميعاً وأنزل عليه القرآن ليظهر لهم ما أشكل عليهم من أمر الدين.



﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

شرح المفردات

أنزل من السماء ماء: أي أنزل من السحاب ماء، وكل ما علاك يطلق عليه سماء.

بعد موتها: بعد يبسها وجفافها.

الأنعام: الإبل والبقر والغنم والماعز.

فرث: ما في الكرش من فضلات الطعام.

سائغاً: سهل البلع في الحلق لا يغص به شاربه.

سكراً: العصير الحلو الحلال.

رزقاً حسناً: جميع ما يؤكل طازجاً غير متخمر من التمر والعنب.

من الدلائل على وجود الله ووحدانيته

ثم ينتقل القرآن إلى توجيه الأنظار إلى بعض مظاهر قدرة الله التي تشهد بوحدانيته وفضله على الناس:

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾ والله سبحانه أنزل من السحاب مطراً **﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾** أي فأحيا الأرض بالنبات بعد أن كانت يابسة لا حياة فيها **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾** إن في ذلك دليلاً على وجود مدبر حكيم لقوم يسمعون فيتدبرونه ويعقلونه.

فالأرض المجدبة الخالية من الماء هي كالميتة لا تنبت شجراً ولا نباتاً ويهجرها الحيوان والطير ولكن بعد نزول المطر تدب الحياة في أرجائها بأنواع الزرع والنبات ويقصدها الحيوان ليرعى من نباتها.

وبعد أن بيّن الله تأثير الماء في إحياء الأرض دعا الناس إلى التأمل في الأنعام التي يشرب الناس من ألبانها: ﴿وَإِنَّ لَكُم فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أي وإن لكم أيها الناس في الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم والماعز لموعظة تتعظون بها حيث ﴿نُسْقِيكم مِمَّا في بطونه مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً﴾ والفرث هي الفضلات التي تخرج من الحيوان وتسمى الروث. أي نسقيكم من بعض ما في بطونها من بين فضلات الطعام والدم لبناً خالصاً صافياً ﴿سَائِغاً للشَّارِبِينَ﴾ أي سهلاً يجري في الحلق لا يغص به شاربه.

نعم إن في تكوّن اللبن لعبرة تشهد بوجود خالق حكيم، ففي ضروع[1] الماشية توجد غدد خاصة لإفراز اللبن، هذه الغدد تمدها الأوعية الشريانية بخليط مكوّن من الدم والكيلوز. والكيلوز هذا عبارة عن الغذاء المهضوم من النبات قبل أن يصبح فرثاً. وبديهي أن كلاً من الدم والكيلوز غير مستساغ طعماً، ولكن تقوم الغدد اللبنية باستخلاص هذين السائلين، كما تضيف إليهما عصارات خاصة تحولها جميعاً إلى اللبن الخالص، فلا ترى في بياضه حمرة الدم، ولا في طعمه أثراً لطعوم الأعلاف والدماء والفرث، ولا تحس برائحة كريهة من هذه الروائح التي احتبست في أجوافها، بل تجده لبناً سائغاً للشاربين.

ويحتوي اللبن على نسبة مرتفعة من البروتين الغني بالكبريت والكلسيوم وبعض الفيتامينات مما يجعل اللبن أهم غذاء للنمو وسلامة العظام والأسنان لاحتياجها للكلسيوم، كما أن اللبن عامل فعال للوقاية من ترقق العظم. وإذا كان الشعر يتساقط بسبب نقص الكلسيوم فإن شرب اللبن دواء وعلاج له.

ويتابع القرآن فيذكر فضل الله على الناس بما رزقهم من أنواع الثمار:

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ﴾ أي ولكم أيضاً عبرة فيما نرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب «جمع عنب» ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ السكر: هو

(١) الضروع: جمع ضرع وهو بمنزلة الثدي للمرأة.

العصير الحلو الحلال مما يتخذ من ثمر النخيل والكرم، وسمي سكراً لأنه قد يصير مسكراً إذا تخمر وبقي مدة من الزمن فإذا بلغ حد الإسكار حرم. والرزق الحسن: سائر ما يتخذ من ثمرات النخيل والأعناب مثل الدبس والتمر والزبيب والخل وغير ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾ إن في ذلك لدلالة لمن يستعمل العقل فيستدل بهذه الآية على كمال قدرة الله ووحدانيته وأن لهذه الأشياء خالقاً مدبراً حكيماً.

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

شرح المفردات

وأوحى: ألهم.

ومما يعرشون: ومما يبني الناس من الخلايا للنحل.

ذللاً: مذللة لا يصعب عليها ارتيادها.

عظمة الإبداع الإلهي في النحل

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن عظمة القدرة الإلهية المتمثلة بالنحل وما خصه الله بها من إلهام:

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ والوحي المراد به هنا الإلهام الذي وضعه الله في الحيوانات والطيور والحشرات وغيرها، وقد كتب العلماء المجلدات الكثيرة عن هذا الإلهام وما تتمتع به هذه المخلوقات من غرائز وأسرار مدهشة. ومعنى الآية: وألهم ربك النحل أن تختار من الجبال بيوتاً في كهوفها ومغاراتها، وتتخذ من الشجر داخل أجواف جذوعها وبين أغصانها بيوتاً أيضاً ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ومما يهيئه الناس لها من العرائش والخلايا التي يبنونها لها

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ثم كلي أيتها النحل بعضاً من كل الثمرات وهو رحيق الأزهار ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ فاذهبي في طرق ربك التي توصلك إلى الحدائق والبساتين مذللة لك الطرق، مسهلاً لك سلوكها، لا يصعب عليك ارتيادها، ولا تضلين عند العودة منها إلى بيوتك وإن بعدت ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يخرج من بطون النحل عسل بعد أن تتناول غذاءها من كل زهور الثمرات المختلفة الألوان، وقد عبّر الله عنه بالشراب لأنه مما يشرب ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ لم يعمم الله في لفظ الشفاء إذ لم يقل: فيه الشفاء للناس بل قال: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ﴾ بتنكير شفاء للتبعيض بمعنى فيه الشفاء لكثير من الأمراض لا كل الأمراض، فقد يشفي العسل مرضاً معيناً ولكنه لا يشفي مرضاً آخر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في إلهام ربك إلى النحل وفي صنعها العجيب للعسل لدليلاً قوياً، وحجة واضحة لقوم يتفكرون في عظمة خالقها وبديع إلهامه لها.

من أسرار مجتمع النحل

يعيش النحل في مجتمع يبلغ عدد أفراده عشرة آلاف نحلة على أقل تقدير وقد تضم الخلية ثمانين أو مئة ألف نحلة أحياناً. وينقسم مجتمع النحل إلى ثلاث طبقات:

١ ـ الملكة الأم وهي أم لأفراد مستعمرة النحل كلها وتمتاز عن غيرها بحجمها الكبير، والملكة وحدها تضع البيض ويبلغ مجموع ما تضعه في اليوم الواحد خمسة عشر ألف بيضة وهي تعيش على غذاء خاص يُدعى الهُلام الملكي الذي تنتجه إناث النحل العواقر.

٢ ـ ذكور النحل الذين لا يستطيعون المشاركة في أعمال الخلية المهمة، ومهمتهم الوحيدة النافعة هي إخصاب الملكة.

٣ ـ العاملات وهي تقسم إلى فرق: فهناك فرقة الجانيات التي تجني الرحيق من الأزهار، وهناك فرقة العاسلات التي تتناول الرحيق الذي تأتي به الجانيات وتتداوله لتخميره وتبخير ما فيه من ماء، والعسل لا يعدو أن يكون رحيقاً ازدردته

النحلة وهضمته جزئياً ثم تقيأته، وهناك فرقة المراقبة وهي ملحقة بخدمة الملكة تعنى بنظافتها وتنظم غذاءها لكي تعطي من البيض المقدار الذي تقتضيه الحاجة وتحميها من الأخطار التي تهددها، وهناك فرقة البانيات التي تفرز الشمع من غددها الخاصة وتبني بها مخازن للعسل.

وهناك فرقة التنظيفات التي تنقل إلى خارج الخلية جثث النحل التي يفاجئها الموت داخل الخلية؛ وهناك فرقة الحراسة التي تقف عند مدخل الخلية تتفحص كل مخلوق يدخل الخلية وكل نحلة غريبة عن الخلية وتمنع كل لص طماع كالزنابير ونحوها من الدخول، وهناك فرقة تقوم بالتهوية بأجنحتها لتبريد داخل الخلية عند اشتداد الحر.

كل هذا التنظيم العجيب لمملكة النحل وبناء أقراص العسل من مسدسات متساوية الأضلاع لا خلل فيها لا يمكن للإنسان أن يصنع مثلها إلا بالمساطر والأشكال الهندسية، وفي غدوّ النحل لاقتطاف رحيق الأزهار ورجوعها إلى خلياتها من مسافات بعيدة دون أن تخطئها كل ذلك يعطينا البرهان الساطع على وجود قدرة إلهية حكيمة ألهمت النحل ليعيش على هذا الشكل العجيب. هذا بعض ما اختصرناه عن مملكة النحل ولو أردنا الإسهاب لاحتاج ذلك إلى مجلد.

معجزة القرآن في العسل

فالقرآن يقرر أن الشراب الذي يخرج من بطون النحل ﴿فيه شفاء للناس﴾ من بعض أمراضهم وهذه معجزة من معجزات القرآن أثبتها الطب حديثاً.

١ ـ فالعسل يحتوي على كثير من الفيتامينات التي لها دور فعال في صحة الجسم بما توفره من نشاط وقوة ووقاية من بعض الأمراض. فهو يحتوي على فيتامينات ب١ ـ ب٢ ـ ب٣ ـ ب٦ ـ وفيتامين ج ـ كما أن العسل يحتوي على كثير من الخمائر، والأحماض العضوية والأملاح المعدنية والأحماض الأمينية التي هي غزيرة الفائدة للإنسان. وللعسل دور فعال للشفاء من الأمراض الآتية:

أمراض الجهاز التنفسي: استعمل العسل في حالات السل الرئوي فساعد على امتصاص الرطوبة، وتهدئة السعال، وخفض سرعة التفل إلى الحد الطبيعي وزيادة الوزن.

ووصف العسل لمعالجة السعال الديكي والتهاب القصبات والشعب، وذات الرئة المزمنة والربو.

فقر الدم: وللعسل تأثير كبير في معالجة فقر الدم بسبب ما يأتي به من زيادة في الكريات الحمراء، ورفع نسبة الخضاب في الدم، وزيادة القابلية للطعام، وزيادة الوزن والحيوية والقوة.

أمراض القلب: لسكر الفواكه وسكر العنب تأثير كبير في تغذية عضلة القلب وإعطائها القوة الحرارية لتستمر في نشاطها وعملها الذي يجب ألا يتوقف، وهما موفوران في العسل، فضلاً عن أن العسل يوسع الأوعية الإكليلية، ويرفع الضغط المنخفض، ويساعد القلب على الشفاء في كثير من الحالات المرضية.

أمراض الكلى: إذا أعطي العسل مع بعض الأدوية الخاصة باضطراب الكلى فإنه يزيد من فائدتها، وينظم انتقال الماء عبر الأغشية الحيوية ويساعد على ضبط توازن الضغط الحلولي (Osmosis).

النزلات الشعبية: يمكن الاعتماد اعتماداً قوياً على العسل في الشفاء التام من النزلات الشعبية كالانفلونزا والكريب، وهو مخفض للحرارة الزائدة ومزيل للعُصَيّات الجرثومية من اللوزتين.

أمراض الهضم: وكذلك فإن العسل يكافح الإمساك ويقضي على الجراثيم المضرة في الأمعاء، وينقص الحموضة الزائدة في المعدة، ويفيد في أمراض الكبد.

الجراح والحروق: ثبت أن العسل إذا ضمدت به الجراح، يطهرها من الجراثيم ويساعد على زيادة إفراز مادة الغلوتاثيون (Glutathion) وهي أساسية في عملية الأكسدة والترميم الخلويّ والتجديد فتنمو الخلايا ويلتئم الجرح، كما أنه

يفيد في بعض الأمراض الجلدية، ويطيل فترة شباب الجلد وحيويته ورونقه ويبعد عنه مظاهر الشيخوخة.

الأطفال: فائدة العسل في طب الأطفال تظهر في زيادة الخضاب الدموي (الهيموغلوبين) والتنمية وزيادة الوزن والوقاية من التعفنات المعوية الخاصة والمساعدة على ظهور الأسنان بيسر وعلى نمو العظام وإعطاء الأطفال صحة جيدة ووقاية من المرض، ويمنع من التهابات اللثة، إضافة إلى فوائد أخرى كثيرة للعسل لم نذكرها خوف الإطالة[١].

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

شرح المفردات

أرذل العمر: كبر السن المقرون بالخرف.

ملكت أيمانهم: مماليكهم (أي العبيد).

حفدة: أولاد الأولاد.

فلا تضربوا لله الأمثال: فلا تشبهوا الله بخلقه.

---

(١) نقلاً باختصار عن «الموسوعة في علم النحل» للأستاذ محمد خليل الباشا.

الأعمار والأرزاق بيد الله

ويتابع القرآن فيذكر مراحل عمر الإنسان التي يمر بها في دنياه وفقاً لإرادة الله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم ثُمَّ يَتَوَفَّاكُم﴾ والله خلقكم أيها الناس وأوجدكم من العدم ثم يميتكم بعد انتهاء آجالكم ﴿وَمِنكُم مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ﴾ ومنكم من يهرم فيصير إلى أرذل العمر وهو أردؤه حيث تنقص فيه القوى وتضعف الحواس ويكون حال الإنسان فيه كحالته وقت الطفولة من ضعف العقل والقوة ﴿لِكَي لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شيئاً﴾ ليعود جاهلاً كما كان في حال طفولته وصباه فينتابه النسيان وقد يفقد ذاكرته بالتمام فلا يعلم شيئاً ﴿إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي عليم بكل ما يكون، قدير لا يعجزه شيء أراده.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ في الرِّزْقِ﴾ والله سبحانه فضل بعضكم على بعض في الرزق، فهذا غني، وذاك فقير ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا برادِّي رِزْقِهِم عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم فَهُم فِيه سَوَاءٌ﴾ أي فليس الأسياد بمعطين ما رزقهم الله من المال لعبيدهم المملوكين لهم حتى يصير المال شراكة بينهم بحيث يتساوون في ملكيته والتصرف فيه. فإذا كان هؤلاء الكفار لا يرضون أن يشاركهم عبيدهم في الرزق مع أنهم بشر مثلهم، فكيف جعلوا عباد الله من البشر ومخلوقاته شركاء له في ملكه ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي أيجحدون هذه النعم التي أفاضها الله عليهم ويخصون غيره بالعبادة، مع أن الله الخالق الرزاق لكل شيء في الوجود.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُم أَزْوَاجاً﴾ والله جعل لكم من جنس أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وجعل لكم منهن أولاداً وأولاد أولاد ﴿وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ورزقكم الله من لذيذ المآكل والمشارب ﴿أَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أيكفرون بالله الذي شأنه هذا، ويؤمنون بالباطل وهو اعتقادهم بأن أصنامهم تضر وتنفع ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ وهم بنعم الله يجحدون حيث يضيفونها إلى غير الله وينسبون موجدها إلى الأصنام والأوثان.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ شَيئاً وَلاَ

﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون من غير الله أوثاناً لا تملك لهم رزقاً من السماوات فلا تقدر على إنزال المطر لإحياء الأرض الميتة فيخرج منها النبات والحبوب والثمار لغذائهم، ولا تقدر على فعل شيء فيه نفع لهم أو ضر ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ فلا تجعلوا لله مثيلاً، ولا تشبهوه بخلقه فإنه ليس له مثيل ولا شبيه ولا تجعلوا مع الله إلٰهاً غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ والله يعلم ما كان وما سيكون وأنتم لا تعلمون مقدار عظمته حين جعلتم له شركاء في ملكه، كما أنكم لا تعلمون ما في عبادة غير الله من سوء العاقبة.

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

شرح المفردات

ضرب الله مثلاً: أورد حجة على سبيل التشبيه والتمثيل.

هل يستوون: المراد أنهم لا يتساوون.

أبكم: لا يقدر على الكلام وهو غالباً لا يسمع.

كَلٌّ على مولاه: عالة وعبء على سيده الذي يتولى أمره.

يوجهه: يبعثه في مهم من الأمر.

الساعة: المراد بها يوم القيامة.

كلمح البصر: النظرة الخاطفة.

مقارنة بين عبادة الله وعبادة الأصنام

ويتابع القرآن فيقدم مثالاً لحال الكافر وآخر لحال المؤمن بقوله تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ﴾ هذا مثل ضربه الله لحال الكافر، رزقه مالاً فلم ينتفع به في خير، ولم يعمل فيه بطاعة الله، فمثله في ذلك كالعبد المملوك الذي لا يملك مالاً ولا يقدر على فعل شيء فهو مسخر بإرادة سيده ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً﴾ وهذا مثل لحال المؤمن بالله فإنه يعمل بطاعة الله وينفق ماله الذي رزقه الله في سبيله في السر والعلانية، فهو حرٌّ في ماله يتصرف فيه كيف يشاء.

وقيل المراد مما سبق أن هذا المثل ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام التي أشركوها مع الله، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء وبيده الرزق وهو وحده المتصرف في الكون كيف يشاء، بينما الأوثان هي كالعبد المملوك لا تقدر على شيء فهي عاجزة عن التصرف، فكيف يجعلها المشركون شركاء لله ﴿هَلْ يَسْتَوونَ﴾ أي هل يعقل أن يتساوى الكافر المنغمس بمعاصي الله مع المؤمن المطيع لله؟ أو هل تتساوى الأوثان العاجزة مع الله الخالق الرازق؟ وإذا كانا لا يتساويان فكيف يخص المشركون أوثانهم بالعبادة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي الثناء الكامل والشكر التام لله وحده لأنه المستحق للعبادة دون سواه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُم لا يَعْلَمُونَ﴾ بل أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون ذلك فهم بجهلهم يجعلون الأوثان شركاء لله في العبادة.

ثم يقدم القرآن مثالاً يوضح فيه فساد ما يعبده المشركون من أصنام:

﴿وضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ أي وذكر الله مثلاً آخر يوضح فيه فساد مساواة المشركين أصنامهم بالله، وهو يظهر في رجلين. أحدهما: رجل أبكم أي أخرس أصم يَفهم ولا يُفهِم. وكذلك الأصنام فإنها لا تنطق ولا تَفهم ولا تُفهِم لأنها إمّا من خشب منحوت أو من نحاس مصنوع أو حجر منحوت ﴿لا يَقْدرُ عَلَى شيءٍ﴾ وهذا الأبكم لا يقدر على شيء لنفسه أو لغيره من جلب نفع أو دفع ضر.

وكذلك الأصنام لا تقدر على شيء لأنها جماد من صنع البشر ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ﴾ وهذا الأبكم عالة وعبء على سيده أو من يلي أمره، وكذلك الأصنام هي عالة على من يعبدها، فهي تحتاج إلى من يحملها وينظفها ويخدمها ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لاَ يأْتِ بِخَيْرٍ﴾ وهذا الأبكم أينما يرسله مولاه في مهمة لا يأت بمنفعة لأنه لا يقدر أن يُعبّر عما في نفسه وعما يريده، وكذلك الصنم لا يعقل ولا ينطق.

أما ثانيهما: فرجل عاقل له رأي صائب وفكر ثاقب وهو سليم الحواس يأمر الناس بالإنصاف والعدل ﴿هَلْ يَسْتوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ﴾ أي هل يتساوى ويتماثل هذا الأبكم الذي لا يأتي بخير مع رجل سديد العقل يدعو إلى الحق والرشاد؟ وإذا كانا لا يتماثلان فكيف يسوي المشركون الصنم الأصم الأبكم العاجز بالله القادر على كل شيء الذي يفيض على عباده الكثير من آثار فضله ورحمته ويأمرهم بالعدل في توحيده وطاعته ﴿وَهُوَ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو على طريق مستقيم غير معوج وهو الله الواحد القهار الذي يدعو عباده إلى سلوك الطريق المستقيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوات والأَرْضِ﴾ والله وحده يعلم ما غاب عن العباد في السماوات والأرض وما خفي عليهم علمه ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وما أمر مجيء يوم القيامة وبعث الناس أحياء بعد مماتهم في السرعة إلاّ كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها بل هو أقرب عند الله في الحقيقة ﴿إنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ إن الله عظيم القدرة لا يمتنع عليه شيء أراده.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

شرح المفردات

لعلّكم تشكرون: لكي تشكروا ربكم.

الطير مسخرات: أي مذلّلات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة.

تستخفّونها: تجدونها خفيفة الحمل.

يوم ظعنكم: يوم رحيلكم.

أوبارها: جمع وبر وهو شعر الإبل.

أشعارها: جمع شعر والمراد به شعر الماعز.

أثاثاً: فُرُشاً وملابس وغطاء وبسطاً وغير ذلك.

متاعاً إلى حين: ما يتمتع وينتفع به إلى وقت انقضاء حاجتكم.

أكناناً: جمع كِنٍّ وهو ما يستتر به ويسكن فيه كالكهوف.

سرابيل: هي الثياب.

سرابيل تقيكم بأسكم: هي ما يلبس في الحروب من دروع وسواها.

تولوا: أعرضوا وأبوا.

نِعَمُ اللّه على خلقه

بعد أن بين القرآن فساد الشرك باتخاذ الأوثان شركاء لله في العبادة شرع في ذِكْرِ عدد من دلائل قدرة الله وجليل نعمه على عباده التي تستوجب أن يُعبد وحده دون سواه:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لا تَعْلَمُون شَيئاً﴾ أي أن الله أخرجكم من أرحام أمهاتكم عند الولادة لا تعرفون شيئاً أصلاً ﴿وَجَعَل لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ وجعل لكم حاستي السمع والبصر لكي تحصّلوا بهما العلم والمعرفة، وجعل لكم الأفئدة لكي تحصلوا العلم وتميزوا بين الخير والشر. والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب، والقرآن يجعل القلب بمنزلة العقل لأنه هو السبب المباشر في حياة المخ ونشاطه، فلو توقف القلب عن النبض لتوقف عمل المخ وفارق الإنسان الحياة ﴿لَعَلَّكم تَشْكُرونَ﴾ أي فعلنا ذلك لكم أيها الناس لكي تشكروا الله وتعرفوا فضله عليكم.

هذه الآية صريحة في أن المعرفة تعتمد على السمع والبصر والعقل، فلو أُخِذَ طفل وحبس عن العالم إلا فيما يكفي لحياته من طعام وشراب فإنه وإن نما جسمه حتى يبلغ سن الرجولة فإنه لا ينمو عقله عن عقل الطفولة، بهذا يقول علماء التربية لأن ما يحصله الإنسان من علم بعد أن يولد إنما يكسبه عن طريق السمع والبصر والعقل وهذا ما أثبته القرآن. ومما يلفت النظر هو الترتيب الذي ذكرته الآية القرآنية حيث ابتدأت بالسمع ثم بالبصر ثم بالعقل، هذا الترتيب الذي يشهد بعظمة القرآن، فقد أثبت الطب الحديث أن حاسة السمع تبدأ مبكرة جداً في حياة الطفل[1]، ثم يليها البصر، أما الفؤاد وهو الإدراك والتميز فلا يتم إلا بعد ذلك.

ومن الدلائل التي تشهد بوجود الله ووحدانيته:

---

(١) ثبت علمياً أن الطفل يسمع وهو في بطن أمه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أي ألم ينظر الناس إلى الطير مذللات للطيران في جو السماء بما زودها الله من أجنحة أوسع من جسمها مكسوة بالريش الخفيف الوزن، وبما زودها من جسم انسيابي، وأكياس هوائية بين الأحشاء متعلقة بالرئتين تمتلىء بالهواء عند الطيران فيخف وزن الجسم، فما يمسكهن في الجوّ إلاّ الله الذي خلق للطير كل هذه العوامل التي تتيح له الطيران في الجو ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في ذلك لعلامات ودلالات لقوم يؤمنون بوحدانية الله وعظيم قدرته، وخص القرآن المؤمنين بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالنظر والتدبر دون غيرهم. فالطير وما يكتنف تكوينه من أسرار لا يمكن أن ينشأ صدفة أو عبر تطورات ألوف السنين كما يدعي الماديون الملحدون، بل إن الذي أبدع ذلك هو الله العليم الحكيم.

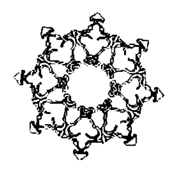
﴿واللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُم سَكَناً﴾ أي الله هو الذي هداكم إلى اتخاذ البيوت لكي تسكنوا فيها ولم يترككم تأوون إلى الغابات. هذا ما يمنّ الله به على الناس، فبيوت السكن تقوم حالياً على عشرات المواد الأولية التي خلقها الله في الأرض وعلى كثير من الصناعات التي ألهم الله الإنسان لإنشائها، وبيوت السكن هي أول ما يتوجه إليه اهتمام الإنسان في بنائها لحاجته الضرورية لها، والناس لكثرة ما ألفوا ذلك غفلوا عن هذه النعمة الجليلة ولم يتوجهوا بالشكر لربهم عليها. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً﴾ أي وجعل الله لكم من جلود الإبل والبقر والغنم بيوتاً كالخيام ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُم﴾ أي تجدونها خفيفة الحمل وقت ترحالكم وسفركم ووقت إقامتكم ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعارِهَا أَثَاثاً﴾ أي وهداكم الله أن تتخذوا من صوف الغنم ووبر الجمل وشعر الماعز أثاث المنازل من البسط والسجاد والفرش والكساء والغطاء ﴿وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ أي تنتفعون بها إلى وقت انقضاء حاجاتكم، أو إلى انتهاء آجالكم.

﴿وَاللَّهُ جَعَل لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾ والله جعل لكم من الأشياء التي خلقها كالأشجار والجبال وغيرها ظلالاً تقيكم حرّ الشمس ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الجِبَالِ

أَكْنَاناً﴾ كما جعل لكم من الجبال ما تسكنون فيه أو تأوون إليه عند الحاجة من المغارات والكهوف ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ ومن نعم الله تعالى أن ألهمكم إلى اتخاذ ملابس من القطن والكتان والصوف تستر أجسامكم وتقيكم حر الشمس وبرد الشتاء، وقد استغنت الآية بذكر الوقاية من الحر عن ذكر الوقاية من البرد لأن العرب تستغني في لغتها كثيراً بذكر أحد المتقابلين عن ذِكْرِ الآخر ﴿وَسَرَابيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ كما أرشدكم ربكم أن تصنعوا من الحديد دروعاً تقي أجسام المتقاتلين من ضربات السيوف وطعنات الرماح والسهام ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾. أي كما أنعم الله عليكم بهذه الأشياء فكذلك يتم نعمته عليكم بالدّين القيّم لكي تخضعوا له بالطاعة وتخلصوا له العبادة دون غيره.

ثم يخاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ المبينُ﴾ أي فإن أعرض هؤلاء المشركون عما أُرسلت به من الحق ولم يستجيبوا لك فلا لوم عليك لأنك قد أديت ما أُمرت به وما عليك إلاّ إبلاغ رسالة ربك الواضحة.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثم ينكرونها﴾ أي يعرف المشركون نعم الله عليهم ولكنهم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله وبأقوالهم الباطلة ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الكَافِرُونَ﴾ وأكثر أهل مكة كفروا بربهم حين عبدوا غير الله وأعرضوا عن الحق، أما القليل منهم فقد آمنوا بوحدانية الله.



﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

شرح المفردات

نبعث: نرسل أو نحضر.

أمة: الجماعة العظيمة من الناس تشترك في شيء مميز عن سواها كاللغة مثلاً.

شهيداً: نبياً يشهد على أمته بكفرهم أو إيمانهم.

ولا هم يُستعتبون: ولا يطلب منهم أن يرضوا ربهم بالتوبة والطاعة.

يُنظرون: يمهلون ويؤخر عذابهم.

وألقوا إلى الله يومئذ السَّلم: استسلموا وخضعوا لحكم الله.

وضلَّ عنهم: وغاب عنهم.

يفترون: يختلقون ويكذبون.

صدّوا: منعوا.

الكتاب: المراد به القرآن.

أحوال المشركين يوم القيامة

ثم تنتقل الآيات إلى وصف أحوال المشركين يوم القيامة وما يلاقونه من عذاب:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ أي واذكر يا محمد للناس يوم القيامة، ونبههم

إلى ما يقع فيه من الأهوال، يوم نحضر من كل أمة نبياً عاش بين أفرادها ليشهد عليها بما أجابوه به إما بالإيمان وإما بالكفر حسبما علمه عن أمته في حياته ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ثم لا يؤذن للذين كفروا بالاعتذار إذ لا عذر لهم يومذاك ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يكلفون بأن يرضوا ربهم بتوبة أو عمل صالح، لأن الآخرة ليست بدار تكليف ليصلحوا فسادهم السابق في الدنيا، ولكنها دار يحاسب فيها الإنسان على ما عمله في دنياه إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي وإذا رأى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي عذاب جهنم وطلبوا من الملائكة الموكلين بهم تخفيف العذاب عنهم فلن يخفف عنهم ذلك العذاب ﴿وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا هم يمهلون ويؤخرون ليتوبوا إذ لا توبة في الآخرة، ولا تُقبل التوبة إلاّ في الدنيا.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ شركاءهم: هم الذين اتخذهم المشركون شركاء لله من صنم ووثن وآدمي وغير ذلك، وقد أضيفت للذين أشركوا بالله لكونهم هم الذين جعلوهم شركاء لله ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ أي قال المشركون: ربنا هؤلاء الأرباب الذين كنا نتوجه إليهم بالعبادة متجاوزين عبادتك هم الذين أضلونا وحملونا على عبادتهم ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فأنطق الله الأصنام والأوثان قائلين لهم: إنكم لكاذبون أيها المشركون، فيما زعمتم أننا شركاء لله كما كذبتم في ادعائكم أننا أضللناكم ودعوناكم إلى عبادتنا ﴿وأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي استسلم المشركون وانقادوا إلى أمر الله وحكمه بعد أن قامت عليهم الحجة وخاب أملهم في آلهتهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي وغاب عنهم وبطل ما كانوا يختلقونه من الكذب من أن لِلَّهِ شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم.

﴿الَّذِين كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي إن الذين جحدوا وحدانية الله ومنعوا الناس من الدخول في دينه والتصديق برسوله محمد ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي زادهم الله عذاباً لأجل إضلالهم لغيرهم وصدهم الناس عن دين الله، فوق

العذاب الذي استحقوه لأجل كفرهم وضلالهم ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ بسبب استمرارهم على الإفساد في الأرض، وإصرارهم على الضلال.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي واذكر يا محمد يوم القيامة حيث نحضر من كل أمة نبيها الذي عاش بينها في الدنيا وبلغها رسالة الله ليشهد لمن أطاع الله واستجاب له من أمته، وعلى من عصى وأعرض عن دين الله. وهنا تكرار لما سبق من التهديد والوعيد لمن يعرض عن دين الله ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ﴾ وأحضرناك يا محمد يومئذ شهيداً على أمتك تشهد عليهم كما يشهد كل نبي على أمته، أو بمعنى: وجئنا بك يا محمد شهيداً على الأمم بما لاقوا به رسل الله من إيمان وتصديق واتباع لهم أو إنكار وتكذيب على ما أعلمك ربك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شيءٍ﴾ أي وأنزلنا عليك القرآن يا محمد وفيه بيان لأحكام كل شيء من أمور الدين والدنيا ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمينَ﴾ وفيه هداية من الضلال، وبيان الحلال من الحرام، ورحمة لمن صدّق به وعمل بما فيه من حدود الله، وهو بشرى للمسلمين الذين أطاعوا الله وخضعوا لوحدانيته بجزيل الثواب في الآخرة.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

شرح المفردات

يأمر بالعدل: يأمر بالإنصاف وعدم الظلم.

الإحسان: هو إتقان العمل وإكماله وإيصال الخير إلى الناس، والإحسان ضد الإساءة.

إيتاء ذي القربى: إعطاء ذوي القرابة ما تدعو إليه حاجتهم.

الفحشاء: ما عظم قبحه من الذنوب كالزنا مثلاً.

المنكر: ما أنكره الشرع والعقل وهو يعم جميع المعاصي.

البغي: الطغيان والعدوان والظلم والتجبر على الناس.

يعظكم: الموعظة هي النصح والتذكير بالعواقب فيما يرق له القلب.

صفات الخير وصفات الشر

ويتابع القرآن فيدعو إلى الفضائل التي فيها الخير للإنسان والإنسانية جمعاء:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ فالله سبحانه يأمر بالعدل وهو ضد الجوْر والظلم، لأن الظالم مال عن طريق الحق. فالعدل هو الحكم بالحق وإعطاء كل ذي حق حقه. والعدل يغرس في الإنسان حب الاستقامة والمساواة وإنصاف الغير من نفسه وإنصاف الناس بعضهم بعضاً.

كما يأمر الله بالإحسان وهو الإتيان بالعمل على الوجه الحسن المتقن، ومنه إحسان العبادة وذلك بالقيام بها على الوجه الأفضل وفي هذا يقول رسول الله محمد ﷺ عندما سُئل عن الإحسان فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وأراد بالإحسان هنا الإشارة إلى المراقبة والإخلاص لله فمن راقب الله حَسُنَ عمله.

كما يأتي الإحسان بمعنى الإنعام على الغير والتفضّل عليه بما يحتاجه من الصدقات. يقول الراغب الأصفهاني: الإحسان فوق العدل، وذاك أن العدل هو أن يُعطي المرء ما عليه ويأخذ ما لَهُ، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقلّ ممّا لَـهُ.

ثم يأمر الله بصلة الأقارب بقوله: ﴿وَإِيتَاءِ ذي الْقُرْبَى﴾ أي إعطاء ذوي القرابة في النسب حقهم من الصلة والبر. وصلة الأقارب تكون بإيصال ما أمكن من الخير لهم ودفع ما أمكن من الشرّ عنهم، ومعاونة محتاجهم بالمال، وعيادة مرضاهم وتخفيف آلامهم. والإحسان إلى الأقارب من أعظم الوسائل في نشر المحبة وتوثيق الروابط بين أفراد الأسرة، هذا وقد حذّر رسول الله ﷺ من قطع صِلَة الرَّحم بقوله: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وبعد أن ذكرت الآية الأمور الثلاثة التي أمر الله بها عقب على ذلك بذكر ثلاثة أمور نهى الله عنها:

﴿وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمنكَرِ وَالبَغْيِ﴾ أي وينهى الله عن الفحشاء قولاً وفعلاً والفحشاء تطلق على الذنوب المفرطة في القبح ويغلب إطلاقها على الزنا.

وينهى الله عن المنكر وهو كل فعل أو قول تحكم العقول الصحيحة بقبحه وكل ما أنكره الشرع بالنهي عنه فهو منكر وهو يعم جميع المعاصي على اختلاف أنواعها.

وينهى الله عن البغي وهو الظلم والتطاول على الناس واغتصاب حقوقهم واحتقارهم والعجب والخيلاء.

ويختم الله هذه الآية بقوله ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ أي ينصحكم الله أيها الناس بما ذكره في هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه لتتذكروا فضله في حسن توجيهكم إلى الخير وإبعادكم عن الشر وتعملوا بما جاء بها.

هذه الآية على إيجازها بينت أعظم ما يحتاج إليه الناس لسلامتهم وسعادتهم في دنياهم وآخرتهم حيث أوضحت لهم الخير من الشر، وميّزت الحق من الباطل وأنارت لهم طريق الهدى، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع آية في القرآن للخير والشرّ، ولو لم يكن فيه غيرها لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى.

ولعظيم مكانة هذه الآية الكريمة اختار الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يختم بها الخطبة الثانية من يوم الجمعة، وما زال متبعاً حتى يومنا هذا.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

شرح المفردات

وأوفوا بعهد الله: العهد ما ألزم الإنسان به نفسه أو ألزمه به غيره ووافق عليه، وعهد الله يدخل فيه المبايعة على الإسلام.

ولا تنقضوا الأيمان: ولا تنقضوا العهود التي تحلفون بالله عليها عند عقدها.

بعد توكيدها: بعد توثيقها.

كفيلاً: شاهداً أو رقيباً بالوفاء.

نقضت غزلها: حلّته بعد فتله وإحكامه.

من بعد قوّة: من بعد إبرام وإحكام فتل.

أنكاثاً: جمع نِكْث وهو الصوف بعد حله.

دخلاً بينكم: فساداً ومكراً وخديعة.

أربى من أمة: أكثر وأوفر عدداً.

إنّما يبلوكم الله به: إنما يختبركم الله هل تفون بعهودكم.

الدعوة إلى الوفاء بالعهود

ثم ينتقل القرآن إلى دعوة المؤمنين للوفاء بالعهود سواء بينهم وبين ربهم أو بينهم وبين الناس:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ فالأمر في الآية شامل للوفاء بكل عهد التزم به

صاحبه. فالعهد هو ما يجري بين طرفين من التزام متبادل بأن يقوم كل منهما لصاحبه بعمل نظير قيام الآخر له بما يقابله، وأكثر ما يجري ذلك مصحوباً باليمين بالله، إو إشهاد الله على ما يصنعون، إو إضافة العهد لله بقولهم: هذا عهد الله، ولذا عبّر الله عن العهد بقوله: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ وإضافة العهد إلى الله تنويه بشأنه وتعظيم لخطره وأهميته.

ومن أهم العهود عهد البيعة على الإسلام، فقد كان المسلمون يعاهدون رسول الله على الجهاد والإسلام، ويبسط كلٌّ يده اليمنى مع الحلف بالله، مشهدين الله على الوفاء بالعهد وفي هذا نزلت الآية الكريمة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح: ١٠].

ويتابع القرآن فينهى عن نقض العهود: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي ولا تنقضوا العهود وتحنثوا في الأيمان التي حلفتم بها عند العهود أو عند المبايعة ﴿بَعْدَ توكيدِهَا﴾ أي بعد توثيقها وتأكيدها باسم الله، وتوكيد اليمين هو أن يحلف الإنسان على الشيء الواحد مراراً ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُم كَفِيلاً﴾ وقد جعلتم الله شاهداً ورقيباً عليكم بالوفاء بالعهد.

وهنا يلفت القرآن أنظار المؤمنين إلى أنهم دخلوا في كفالة الله وضمانته ليكتسبوا به الثقة فلا يجوز لهم أن يخونوا هذه الثقة ويغدروا بمن عاهدوه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي إن الله يعلم أتبرّون في العهود أم تنقضونها وسيجازيكم حسب أعمالكم.

هذا وإن الإنسان الذي يُعرف بالوفاء بما تعهّد به تجد كل مصالحه ميسّرة، ولا يكاد يدخل في معاملة إلا ويتسابق الناس إلى ترجيحه، وتفضيله على سواه، أما من عُرِف بالغدر فإنه يحرم نفسه من ثقة الناس فينبذه المجتمع، وبالتالي تتوقف مصالحه.

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ أي ولا تكونوا في نقضكم للعهود كالمرأة الحمقاء التي تغزل غزلها قوياً متماسكاً ثم تنقضه من بعد إحكام له وإبرام (أنكاثاً) وهو الغزل إذا تفككت طاقاته وعراه وذلك بفك أجزائه بعضها عن بعض ونفشها لتعاود غزله من جديد وتلك حماقة لا تعدلها حماقة، ويراد من هذا التشبيه التنفير من نقض العهود بتمثيل ناقض العهد بحال هذه المرأة المعتوهة. هذا وإن التي نقضت غزلها قيل هي امرأة من قريش كانت تسمى ريطة وكانت حمقاء تغزل الغزل هي وجواريها فإذا أبرمته أمرتهن بنقض ما غزلن، فضرب بها المثل في الحمق ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها لمن عاهدتموه وسيلة للغدر والخيانة والغش، وكان من حقها عليكم أن تكون سبيلاً إلى الوفاء والالتزام بما عاهدتم الله عليه ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي لا تنقضوا العهود طمعاً في التحالف مع جماعة أكثر عدداً وأوفر مالاً من الجماعة التي حالفتموها وعقدتم العهد معها. وهكذا كانت تفعل قبيلة قريش فكانوا ينقضون العهود مع حلفائهم ويحالفون أعداءهم إذا ما رأوا فيهم قوة ومنعة. كما أن في الآية تحذيراً مبطناً للمؤمنين من أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا ما بايعوا رسول الله عليه من الثبات على الإسلام وينضموا إلى قريش ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي إنما يختبركم الله بالوفاء بالعهد ليظهر ما تضمرونه من غدر أو وفاء ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وليبين الله لكم يوم القيامة حقيقة ما كنتم تختلفون عليه في الدنيا ويجازيكم حسب أعمالكم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي ولو شاء الله لجعلكم جماعة واحدة وأهل ملة واحدة وهي ملة الإسلام لا تختلفون ولا تفترقون. هذه الآية تفيد على أنه لا يُكره أحدٌ على أن يكون مسلماً، لأن اختلاف الناس في المعتقدات الدينية هو من طبيعة البشر التي تختلف عقولها في تقبل الحقائق ﴿وَلَكِن يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ولكن الله جعلكم أهل ملل شتى، وجعل لكم عقولاً لتميزوا بين الخير والشر، وبين الخطأ والصواب، فمن اختار الضلال على الهدى وشهوات الدنيا على

طاعة ربه تركه الله وما يريد، ومن اختار رضا الله بالعمل الصالح فسار على طريق الهدى وفقه الله لذلك ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وستسألون جميعاً أيها الناس يوم القيامة عن جميع أعمالكم في الدنيا لينال كل إنسان جزاء عمله ثواباً أو عقاباً.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

شرح المفردات

دَخَلاً بينكم: الدخل هو الغدر والمكر والخديعة.

فتزل قَدَمٌ بعد ثبوتها: زَلل القدم يكنى به عن الوقوع في البلاء والمحنة بعد العافية.

السوء: المكروه.

بما صددتم عن سبيل الله: بسبب إعراضكم عن أحكام دينه.

التحذير من نقض العهود وبيان ثمرة العمل الصالح

ويتابع القرآن فيحذِّر المؤمنين من نقض العهود التي أبرموها مع غيرهم.

﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُم دَخَلاً بَيْنَكُم﴾ أي ولا تتخذوا العهود التي تقسمون على الوفاء بها خديعة ومكراً تغرون بها الناس، كرّر القرآن الآية تأكيداً على الوفاء بالعهد، وقد يراد من هذه الآية نهي خاص عن نقض العهد موجه إلى الذين بايعوا رسول الله على الإسلام ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ وهنا استعارة لمن كان مستقيماً

ووقع في الضلال وسقط فيه لأن القدم إذا زلت أدت بصاحبها إلى الوقوع في البلاء والمحنة، والمعنى المراد: أي إذا نكثتم بالعهود تزل أقدامكم عن شريعة الإسلام بعد ثبوتها عليه ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وتذوقوا العذاب السيء في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً بسبب إعراضكم عن دين الله، أو بما تسببتم فيه من إعراض غيركم عن سبيل الله، وسبيل الله هو صراطه المستقيم، وشرعه الذي شرعه للعالمين. وإنما سمّى القرآن نقض العهد صدًّا عن سبيل الله لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له ثقة بدين الإسلام، فيصده ذلك عن الدخول فيه ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولكم يا من تنقضون العهد عذاب شديد في الآخرة لا يعلم مداه إلاّ الله، وتنكير العذاب مع وصفه بالعِظم هو لتهويل أمره وبيان شدته.

﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي لا تستبدلوا عهد الله وعهد رسوله مقابل مبلغ من المال لنقض العهد والارتداد عن الإسلام، وهو ما كان يفعله كفار قبيلة قريش مع بعض المؤمنين الذين عاهدوا رسول الله محمداً ﷺ على الإسلام، فكانوا يغرونهم بالمال ليرتدوا عن الإسلام، والحكم هنا عام في كل الأزمان للذين ينقضون العهد بسبب إغراءات مالية معينة ﴿إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي إن ما عند الله من الأجر والثواب هو خير لكم من هذا الثمن القليل الذي يعدونكم به لإغرائكم بنقض العهود ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم الذين يعرفون قيم الأشياء على حقيقتها.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ما تملكونه أيها الناس من متاع الدنيا ينتهي ويفنى مهما طال به الأمد، وما عند الله من الثواب للمطيعين لله فهو الباقي الدائم فاحرصوا على الباقي الذي لا يفنى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ﴾ وليثيبنَّ الله الصابرين على طاعتهم لله، والصابرون هم الذين ضبطوا أنفسهم فلم تخدعهم الدنيا وزخارفها، ولم يميلوا عن دينهم لأجلها ولم يشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أنه سبحانه سيجزيهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم كما قال

سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] أو بمعنى أن الله سيعطيهم الأجر الجزيل جزاء الأدنى من أعمالهم كعطائه لهم الأجر الجزيل على الأعلى من أعمالهم تفضلاً منه وكرماً.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ فالله يحث المؤمنين والمؤمنات على العمل الصالح مبيناً لهم ما ينشأ عنه من حياة طيبة هنيئة، والحياة الطيبة هي الحياة السعيدة التي لا تنغيص فيها حيث ينعم أصحابها بالسعة في المال والبركة في الصحة والعيال والرزق والحلال والقناعة والمعرفة بالله وحلاوة طاعته ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي يعمل العمل الصالح وهو مصدق بالله ابتغاء رضوان الله وامتثالاً لأمره.

هذا وإن المؤمن الذي يعمل العمل الصالح تطيب حياته مهما صادفه من مصاعب وأهوال لأنه يدرك أن ما يصيبه من مصائب هو بقضاء ربه، وأنه سبحانه لا يفعل ذلك إلاّ لحكمة، فبذلك يخف عليه وقع المصيبة ويجد فيها خيراً إذ يرى في ذلك تكفيراً عن سيئاته كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ. وإن من شأن المؤمن القناعة والزهد في لذائذ الدنيا والرضى بما قسم الله له، وهذه الأشياء تطيب بها الحياة، وإن المرء مهما كبرت ثروته إذا لم يرزق القناعة والرضى بما أُوتي فإنه يظل منغص العيش أبداً.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليجزينهم الله في الآخرة جزاء موافقاً لأحسن أعمالهم. وقد ذكر الجزاء في الآية السابقة خاصاً بالصابرين، وهنا ذُكِرَ عامًّا لكل من يعمل عملاً خالصاً لوجه الله، فلا تكرار في الآيات حيث اختلف المقصود في كل منهما.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

شرح المفردات

فاستعذ بالله: فاعتصم بالله والتجىء إليه.

الرجيم: المطرود من رحمة الله.

سلطان: تسلّط وولاية.

يتولّونه: يتخذونه ولياً مطاعاً.

مفتر: مختلق وكاذب.

روح القدس: هو الملك جبريل.

يلحدون إليه: يميلون إليه وينسبون إليه أنه يعلّمه.

أعجمي: هو الذي في لسانه عجمة عربياً كان أو غير عربي، والعجمة هي اللكنة وعدم الإفصاح في الكلام.

تجنب وساوس الشيطان

وبعد أن بَيَّن القرآن ما يترتب على الإيمان والعمل الصالح من حياة طيبة دعا إلى ما يصون العمل الصالح من شوائب، منها تجنب وساوس الشيطان.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي فإذا شرعت في قراءة القرآن فاسأل الله سبحانه أن يعيذك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله، فقل قبل القراءة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وقراءة القرآن من الأعمال الصالحة، وتخصيص قراءة القرآن بالاستعاذة تنبيه على أنها مستحبة لسائر الأعمال الصالحة عند الشروع بها لأنها قد يشوبها السمعة والرياء وحب الظهور والمكانة عند الناس، وهذه أمور من وساوس الشيطان، بينما الأعمال الصالحة لا يقبلها الله ولا يثيب فاعلها إلا إذا كانت عن إخلاص يبتغي فاعلها وجه الله فقط دون غيره.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي إن الشيطان ليس له تسلط وتأثير في إغواء الذين عمرت قلوبهم بالإيمان وفوضوا أمورهم إلى الله في كل قول وفعل ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ إنما تسلطه وتأثيره في الإغواء يكون على الذين يطيعونه في وساوسه ويستجيبون لإغوائه والذين هم بسبب وسوسته مشركون بالله، أو هم أشركوا الشيطان في أعمالهم.

دحض شبهة عن رسول الله

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على المشركين الذين يطعنون بنبوة محمد ﷺ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ أي وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانها حكم آية أخرى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدل ويغيّر من أحكامه ويعلم وجه مناسبته لزمانه، فلكل وقت من الأحكام والآيات ما يناسبه ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي قال المشركون ما أنت يا محمد إلاّ مفتر كاذب، وذلك أن المشركين كانوا يقولون إن محمداً يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر ثم ينهاهم عنه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثرهم لا يعلمون حقيقة الأمر. فقد يكون فيما ينزله الله من الشرع مصلحة مؤقتة بوقت، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم لأن بعضهم كان يعلم يقيناً صدق نبوة محمد ﷺ.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين

الذين يتهمونك بافتراء القرآن: إن القرآن نَـزَّل عليَّ من ربي بالحق بواسطة روح القدس جبريل أي الروح المطهر من أدناس البشرية ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِين آمَنُوا﴾ ليثبت قلوب المؤمنين بما فيه من الحجج والبراهين ﴿وَهُدًى وَبُشْرى لِلْمُسْلِمينَ﴾ وهداية من الضلالة، وبشرى بثواب الله للذين خضعوا لشرع الله وانقادوا لأحكامه.

وإمعاناً من قريش في رفض دعوة النبي ﷺ لهم إلى الإسلام بحثوا عن سبب يتعللون به في رفضهم دعوته، فقالوا إن الذي يعلّم محمداً هذا القرآن هو بشر وليس ملكاً من ملائكة السماء كما يدّعي. ولإثبات حجتهم الواهية اضطروا أن يلتمسوا شخصاً يشترط فيه أن يكون من غير جنسهم وملتهم حتى يمكن أن يقال فيه إنه تفرّد بعلم لا يعلمه سكان مكة، ولكن يا للعجب أين وجدوا ضالتهم؟ وجدوها في حدّاد رومي قيل اسمه بلعام وكان نصرانياً أعجمي اللسان كان رسول الله يدخل عليه ليعلمه الإسلام فاتهمته قريش أنه يتعلم منه، وقيل اسمه جبْر وكان يعمل في صنع السيوف وهو غلام رومي نصراني وكان صاحب كتب.

فالله سبحانه يدحض هذه الشبهة بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُم يَـقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أي إننا لنعلم ما يقوله كفّار مكة أنه لا يعلّم هذا القرآن إلا رجل من البشر مثله وقولهم هذا باطل ﴿لِسَانُ الَّذي يُلْحِدُونَ إِليْهِ أَعْجَميٌّ﴾ لأن هذا الذي يميلون ويشيرون إليه بأنه يعلّم النبي ﷺ لغته أعجمية، والأعجميّ هو الذي لا يفصح في كلامه، والذي في لسانه عجمة أي لكنة ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ وهذا القرآن الذي تدّعون أن محمداً تعلّمه من أعجميّ إنما هو كلام عربي واضح بلغ القمة في البيان والفصاحة، وعجزت العرب عن محاكاته عندما تحداهم أن يأتوا بمثله، فكيف تجعلون القرآن من تعليم بشر أعجميّ؟

﴿إِنَّ الَّذين لا يُؤْمِنُون بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي إن الذين لا يصدقون بآيات القرآن بأنها من عند الله ﴿لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ أي لا يهديهم الله إلى طريق الرشاد ولا يوفقهم لإصابة الحق ﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم يوم القيامة عذاب مؤلم موجع ﴿إِنَّمَا يَفْتَري الكَذِبَ الَّذين لا يُؤْمِنون بآيَاتِ الله﴾ أي إنما يجرؤ على افتراء الكذب على الله هم الذين لا

يصدقون بآيات الله المنزلة على رسوله محمد الدالة على وحدانيته وصدق رسوله ولا يتوقعون العقاب على كذبهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبونَ﴾ وأولئك هم وحدهم الذين يفترون الكذب لا أنت يا محمد.

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

شرح المفردات

استحبوا الحياة الدنيا: اختاروها وآثروها على الآخرة.

طبع: ختم.

لا جرم: حقاً أو لا محالة.

فتنوا: عذّبوا حتى تلفّظوا بالكفر عن إكراه.

تُوَفَّى: يعطى كل إنسان جزاء عمله وافياً.

حكم التلفظ بالكفر عن إكراه أو عن تعمد

ثم يبين الله حكم المكره على الكفر: ﴿مَنْ كَفَرَ باللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ﴾ أي من أشرك بالله وارتد عن دينه من بعد إيمانه ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ إلاّ من

أكره على الكفر فنطق لسانه بكلمة الكفر وقلبه موقن بالإيمان لينجو من عذاب عدوه ويسلم بروحه فلا حرج عليه إن نطق بكلمة الكفر[١].

﴿وَلَكِن مَنْ شَرَحَ بِالْكُفرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولكن من انشرح صدره بالكفر وآثره على الإيمان فأمثال هؤلاء عليهم سخط الله ولهم عذاب أليم في الآخرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَياةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ وذلك الذي استحقوه من غضب الله وعذابه إنما كان بسبب حبهم الشديد لنعيم الدنيا ومتاعها الزائل وتفضيلها على نعيم الآخرة الدائم إما لمتابعة عشيرتهم على ضلالهم وإما لمغانم يحصلون عليها ﴿وَأَنَّ اللَّه لا يَهْدي الْقَوْمَ الكَافِرينَ﴾ والله لا يهدي أمثال هؤلاء الذين يصرون على الكفر ولا يستجيبون لدعوة الإيمان.

﴿أُولَئِكَ الَّذينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ هؤلاء هم الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم بغطاء معنوي، فقلوبهم لا تقبل الحق والهدى وآذانهم لا تسمع سماع فهم وتدبر لآيات الله كأنهم صمٌّ، وأبصارهم لا ترى ما في الكون من عبر ودلالات على وحدانية الله كأنهم عمي ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ أولئك هم الكاملون في الغفلة إذ غفلوا عن تدبر العواقب ﴿لا جَرَمَ أَنَّهم في الآخرة هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ أي حقاً إنهم الخاسرون في الآخرة حيث استحقوا عذاب الله بسبب عدم قبولهم للحق.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذين هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ هذه الآية نزلت في قوم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة المنورة بعد أن فتنهم المشركون

---

(١) نزلت هذه الآية في «عمار بن ياسر» وذلك أن المشركين بمكة أخذوه وأباه «ياسراً» وأمه «سمية» فعذبوهم ليفتنوهم عن الدين. أما ياسر وسمية فماتا تحت العذاب وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، وأخبر رسول الله بأن عماراً كفر فقال: كلا إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول الله وهو يبكي فقال له الرسول ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال مطمئناً بالإيمان، فقال الرسول: إن عادوا فعد.

عن دينهم وعذبوهم وأكرهوهم على التلفظ بالكفر، وبعد هجرتهم جاهدوا الكفار وقاتلوهم وصبروا على مشاق الجهاد وعلى ما يلاقونه في سبيل دينهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي هؤلاء لهم من ربهم غفران لذنوبهم جزاء جهادهم وصبرهم، وهو رحيم بهم فلا يؤاخذهم على ما أُكرهوا عليه فنطقوا بالكفر تحت تأثير العذاب.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ وأنذر المشركين يا محمد حيث تأتي كل نفس يوم القيامة تسعى في خلاصها بالاعتذار لا يهمها شأن غيرها فتقول: نفسي نفسي ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ وتنال كل نفس جزاء عملها في الدنيا من طاعة لله أو معصية له ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينالون إلا ما يستحقونه فلا يبخس محسن جزاء إحسانه ولا يعاقب مسيء إلا على عمله.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

شرح المفردات

رغداً: طيباً هنيئاً لا عناء فيه.

فأخذهم العذاب: فأهلكهم العذاب.

كفران نعم الله وعواقبه الوخيمة

ويتابع القرآن فيبين العواقب الوخيمة التي تترتب على الكفر بنعم الله:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ أي وجعل الله مثلاً لأهل مكة أو لكل قوم أبطرتهم النعمة هو قصة قرية من القرى كان أهلها آمنين من كل المخاوف،

مطمئنين لا يزعجهم مزعج كما يحدث في بعض القرى من الفتن بين أهاليها، والصراعات الداخلية، وإغارة الأعداء عليها ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يأتي هذه القرية الرزق الوفير من كل نواحيها ومن سائر البلدان ﴿فَكَفَرتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أي جحد أهل هذه القرية نعم الله عليهم فقابلوها بالكفران بدل الشكر.

وكفران النعم له مظاهر شتى: فالذي ينكر أن للكون خالقاً أنعم على الإنسان بنعمة الوجود ورزقه من نعمه التي لا تحصى فهو كافر بنعم الله.

وإن الذي لا يشكر الله على نعمه بلسانه وقلبه ويجحد فضله فهو كافر بنعم الله عليه.

والذي يعصي الله ويتخذ من نعم الله عليه طريقاً إلى البغي واقتراف الفواحش والمنكرات فهو كافر بنعم الله.

والذي يسرف بما أعطاه الله من المال الوفير على ملذاته الشخصية وأنواع الترف ويحرم أبناء وطنه بعضاً مما أعطاه الله فهو كافر بنعم الله.

هذه المظاهر لكفران النعمة إذا شاعت في الأمة حلّ عليها عذاب الله كما قال سبحانه: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ والْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي سلط الله عليها عذابه، وأذاقها الله لباس الجوع والخوف هذا التعبير هو عن طريق الاستعارة لأنهم لمّا فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع، وجعل الله اللباس مستعاراً لما غشيهم من الجوع والخوف وأحاط بهم من كل الجهات فشبهه الله باللباس. هذا المثل الذي يسوقه الله ينطبق على كل قرية تكفر بأنعم الله. وقد كانت مكة قبل الإسلام ينطبق عليها هذا الوصف، كذّبوا رسول الله محمداً ﷺ، واضطهدوا المؤمنين، وكفروا بأنعم الله عليهم، فعذبهم الله بالقحط والجوع حتى أكلوا الجيف، وأما الخوف الذي أصابهم فهو خوفهم من سرايا[1] رسول الله التي كانت تغير عليهم.

(١) سرايا: جمع سرية وهي الفرقة التي كانت تغير على الكفار بإيعاز من النبي أو بقيادة غيره.

والجوع والخوف ذاقهما كثير من أمم الأرض في الحروب العالمية والأهلية من جراء كفرانها بنعم الله، وذاقته أمم أخرى من جراء كوارث طبيعية لا عهد لها بها.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم رَسُولٌ مِنْهُم فَكَذَّبُوه﴾ ولقد جاء أهل مكة رسول من عند الله من وسطهم ومن نفس بلدهم يعرفون نسبه وصدقه وهو محمد ﷺ فأنكروا نبوته وكذبوه ولم يقبلوا ما جاءهم به من عند الله ﴿فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فعاقبهم الله بالجوع والخوف وأصناف من العذاب بسبب سوء صنيعهم.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

شرح المفردات

وما أُهِلَّ لغير الله به: أي وما ذكر اسم غير الله عند ذبحه.

غير باغ: غير ظالم لغيره.

ولا عادٍ: ولا متجاوز ما يسد رمقه ويدفع جوعه.

الحلال والحرام من المآكل

ثم يبيّن الله فضله على عباده بما أحلّ لهم من المآكل الطيبة:

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً﴾ فكلوا أيها المؤمنون من رزق الله الحلال الطيب كالأنعام التي أحلّ لكم أكلها ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنتُم إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ واشكروا الله على نِعَمِه التي أنعم بها عليكم إن كنتم تخصون ربكم وحده بالعبادة وتطيعونه فيما يأمركم به وينهاكم عنه.

أما المآكل التي حرمها الله على المؤمنين فهي التي ينشأ منها الضرر وقد عددتها الآية التالية:

﴿إنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ والدَّمَ﴾ فالله حرّم أكل الميتة لأن الحيوان الذي يموت ميتة طبيعية ظاهريًا فإنه لا يموت إلاّ نتيجة لمرض وهذا ما يجعل أكل لحمه ضارًا، وقد يكون مرضه معدياً وهنا الخطر على صحة الإنسان. كما حرم الله تناول الدم والمراد به المسفوح أي المائع الذي يسيل من الحيوان عند ذبحه وإن جمد بعد ذلك بخلاف الدم الكامن في اللحم كالطحال والكبد فإنه يجوز أكلهما.

والدم ضار بالصحة إذا استعمل غذاء فالتحليل له يثبت أن الدم يحوي كمية كبيرة من «حمض البوليك» وهو مادة تضر بصحة الإنسان إذا استعملت غذاء، وقد يكون في الدم جراثيم وفيروسات بعض الأمراض المعدية وهنا يكمن الخطر، وهذا هو السرّ في فرض الإسلام ذبح المواشي من الوريد الرئيسي في العنق حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان.

﴿وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ﴾ وحرّم الله أكل لحم الخنزير لما ينشأ عنه من أضرار شتى، فقد ثبت أن لحم الخنزير يأوي إليه عدد كبير من الطفيليات الضارة، كما يُصاب الخنزير بأمراض شتى، وهذه الطفيليات والأمراض تنتقل إلى الإنسان إذا أكل لحمه وتصيبه بأمراض خطيرة يمكن أن تودي بحياته.

فمن الأمراض الفتاكة التي تصيب الخنزير: كوليرا الخنزير وهو مرض مُعْدٍ ينتشر بين كافة الخنازير على اختلاف أنواعها. ومنها الحمّى المتموجة Brucellosis التي تتميز بإصابات مركزة وخاصة في الفقرات الظهرية والمفاصل والخصية بحيث لا يجدي فيها العلاج نفعاً.

ومن أخطر الطفيليات في لحم الخنزير: الديدان السلكية المدورة، وأشدها ضرراً الصُفَّريّة أو حية البطن، وكذلك ديدان الرئة وهي مؤذية أيضاً إذ تسكن في القنوات الشعبية، وكذلك الدودة السوطية التي تلتصق بجدار المصران الأعور، ومنها أيضاً دودة الكلية التي تؤذي الكبد والكليتين.

ومن الطفيليات الشائعة في لحم الخنزير (الترخينة) Trichinella Spiralis، وهي نوع من الديدان السلكية المدورة، وتوجد الديدان البالغة منها في الأمعاء بينما تقطن اليرقات في أنسجة العضلات حيث تسبب داء مميتاً يُدعى داء الشعرية أو داء الترخينة، وهذا الداء من أشد الأمراض أذى لجسم الإنسان.

﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ والإهلال: هو الصياح ورفع الصوت، فقد كان المشركون إذا ذبحوا ذبيحة لأكلها رفعوا أصواتهم بقولهم: باسم اللات، أو باسم العُزّى وهي أسماء لأصنام كانوا يعبدونها، لهذا حرّم الإسلام أكل هذه اللحوم، والحكمة من تحريمها أن فيها مشاركة للمشركين ومشايعة لهم في معتقدهم، والإسلام يريد أن يحمي أهله من كل مظاهر الإشراك بالله لأن الذبائح لا تكون إلاّ باسم الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١٨٨].

وذهب جماعة من التابعين وأهل العلم إلى أن المراد بما أُهِلَّ لغير الله به: ما ذبح للأصنام لا ما ذكر عليه اسم المسيح أو عُزير لقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ [المائدة: ٥] . فالمراد بطعام الذين أوتوا الكتاب ذبائحهم. أما مطلق الطعام كالخبز والفاكهة فإنه يحل من أي كافر كان. وقال الحسن: إذا ذبح اليهودي والنصراني فذكر اسم غير الله تعالى وأنت تسمع فلا تأكل فإذا غاب عنك فكل فقد أحلّ الله تعالى لك.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فمن دعته الضرورة الملحة إلى تناول شيء من هذه المحرمات لمجاعة حلّت به غير ظالم لمضطر آخر فلا ينتزع منه نصيبه، ولا متجاوز قدر الضرورة وسدّ الرمق، فإن الله واسع الغفران شامل الرحمة ولا إثم عليه لاضطراره لذلك.

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

شرح المفردات

لتفتروا: لتختلقوا الكذب.

لا يفلحون: لا يفوزون بمحبوب.

متاع قليل: انتفاع قليل لا يدوم.

هادوا: اليهود.

عملوا السوء بجهالة: عملوا السوء جاهلين الحرمة.

التحذير من تحليل ما حرمه الله وتحريم ما أحله

وبعد أن حصر الله المحرمات في الآية السابقة في أمورٍ أربعة انتقد طريقة الكفار في تحليل وتحريم أشياء لم يأذن الله بها ولم يُنزِّل فيها شرعاً من عنده، فقال سبحانه:

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ أي ولا تقولوا في شأن الذبائح من الأنعام هذا حلال أكله عند الله وهذا حرام لكي تصف ألسنتكم الكذب بذلك القول الذي لا دليل لكم به في وحي الله وشرعه. فقد كان الكفار يقولون ما في بطون الأنعام خالص لذكورنا ومحرّم على أزواجنا **﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ﴾** أي إن قولكم هذا حلال وهذا حرام بدون حق هو افتراء وكذب على الله **﴿إِنَّ الَّذين يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾** إن الذين يكذبون على الله لا

يفوزون بخير في الدنيا ولا في الآخرة ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وإذا كانوا يفعلون ذلك لنيل نفع أو للحصول على مغنم فمتاعهم في هذه الدنيا بنعيمها وزخرفها هو متاع قليل زائل ولهم في الآخرة عذاب شديد الإيلام.

ويدخل في هذا الوعيد الشديد كل من أحل ما حرّم الله أو حرّم ما أحل الله انسياقاً مع رأيه وهواه أو طمعاً في مغنم مادي، كما يدخل ضمن هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، ولهذا ورد عن النبي ﷺ قوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[1] أي إثمه عليه وعمله مردود عليه.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرّمنا ما أنبأناك عنه يا محمد في سورة الأنعام حيث قال سبحانه:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

والمعنى: وحرمنا على اليهود أكل اللحم والشحم وغيرهما من كل ما ليس له ظفر، أي ما ليس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط، وحرمنا عليهم من البقر والغنم شحومها لا لحومها إلاّ الشحم الذي فوق الظهر أو الحوايا (أي الأمعاء) أو الشحم الذي اختلط بعظم فهو ليس بمحرّم، وهذا التحريم عقاب لهم على ظلمهم.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُم وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ﴾ أي وما ظلمهم الله بتحريم ذلك عليهم ولكنهم ظلموا أنفسهم بمعصيتهم لربهم وتجاوزهم حدوده فحرّم الله عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم.

ثم يبين الله مصير التائبين بقوله:

---

(١) رواه مسلم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ والسوء هو ما يسيء صاحبه من كفر أو معصية أو ذنب، وإنما خص القرآن من يعمل السوء بجهالة لأن أكثر من يأتي السيئات يعملها وهو جاهل بعظمة الله وعقابه للمسيئين، أو يأتيها من غير تبصر وفكر في عاقبة الأمر، أو عند غلبة الشهوة عليهم أو الجهل بأن ما يعمله هو من السوء الذي يبغضه الله ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي ثم ندموا على ما فعلوا من سوء ورجعوا عن ذنوبهم إلى طاعة الله وطلبوا الغفران منه ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي أصلحوا نفوسهم وأعمالهم وساروا على درب الاستقامة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن ربك من بعد من يتوب من ذنبه كثير الغفران لهم واسع الرحمة بهم.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

شرح المفردات

كان أمة: الأمة، الجماعة الكثيرة، والمراد أنه كان بمنزلة أمة في الإيمان بالله والعبادة له حيث كان رائد التوحيد في أمة تعبد الأصنام.

قانتاً لله: أي مطيعاً خاضعاً لله سبحانه.

حنيفاً: موحداً لله مخلصاً له مائلاً عن الباطل إلى الحق.

اجتباه: اختاره واصطفاه.

ملة إبراهيم: شريعة إبراهيم وهي شريعة التوحيد.

الثناء على إبراهيم عليه السلام

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن النبي إبراهيم عليه السلام وما خصه الله به من مزايا فاضلة:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي كان عنده من الخير ما كان عند أمة، فهو وحده أمة من الأمم وذلك لاستجماعه من الخيرات والفضائل ما لا يكاد يوجد إلا متفرقاً في أمة عظيمة، أو بمعنى مأموم أي قدوة يقصده الناس ليأخذوا منه الخير ويقتدوا به ﴿قَانِتاً لِلَّهِ حَنيفاً﴾ والقانت هو المطيع لله سبحانه القائم بما أمره الله به من الطاعات، والحنيف هو المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ المشْرِكينَ﴾ وهنا ردٌّ على المشركين واليهود والنصارى الذين يدّعون أنهم على دين إبراهيم وهم بخلاف ذلك فقد خالطت معتقداتهم الشرك بالله بينما إبراهيم عليه السلام كان موحداً لله مخلصاً له وحده في العبودية ﴿شَاكِراً لأَنْعُمِهِ﴾ أي كان إبراهيم شاكراً لِنعَمِ ربه لم يقصّر بشكر نعمة منها ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ اصطفاه الله واختاره للنبوة وهداه إلى دين لا اعوجاج فيه وهو عبادة الله وحده وهو دين الإسلام الذي أرسل به جميع الرسل.

﴿وآتَيناهُ في الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي أعطاه الله في الدنيا حالة حسنة من الذِّكْر الجميل، والثناء عليه من الناس قاطبة، كما رزقه الله أولاداً طيبين أبراراً، وعمراً طويلاً أمضاه في طاعة الله، ورزقه دعاء الناس له بالخير والبركات ﴿وَإِنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحينَ﴾ وإنه في الآخرة من أصحاب الدرجات العالية في الجنة.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشْرِكينَ﴾ أي ثم أوحينا إليك يا محمد وأمرناك باتباع دين إبراهيم فيما دعا إليه من عبادة الله وحده وإيراد الدلائل العقلية على ذلك، والبعد عن الأديان الباطلة، فإن إبراهيم لم يكن من الذين يجعلون لله شريكاً كما يفعل المشركون من قومك يا محمد.

﴿إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِين اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ كان اليهود يزعمون أن تعظيم يوم

السبت والتخلي عن العمل فيه للتفرغ للعبادة من شعائر ملة إبراهيم فكذبهم الله وبين أنه ما فرض تقديس يوم السبت إلا على الذين اختلفوا في تقديسه مع نبيهم حيث أمرهم بتعظيم يوم الجمعة فاختاروا يوم السبت فألزمهم الله بهذا اليوم وشدَّد عليهم بتحريم الصيد فيه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ﴾ وتأكد يا محمد بأن ربك سيقضي بينهم يوم القيامة في الأمور التي اختلفوا فيها وسيجازي كل إنسان بعمله.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

شرح المفردات

وجادلهم بالتي هي أحسن: وحاورهم بالطريقة التي هي أحسن، طريقة المجادلة بالرفق وحسن الكلام.

ولا تك في ضيق مما يمكرون: ولا تجعل نفسك في حزن وضيق صدر من مكرهم.

اتقوا: اتقاء الله هو تجنب عذابه بالعمل بما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

منهج الدعوة إلى الإسلام

ثم يختم الله هذه السورة بآيات تبين المنهج الذي يجب أن يسلكه الداعي إلى الإسلام:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنةِ﴾ فالله سبحانه يأمر رسوله

محمداً وكلّ من يدعو إلى سبيل الله ـ وهو الإسلام ـ بالحكمة، والحكمة تطلق على كل من يتحقق فيه الصواب من القول والعمل، كما جاء في معنى الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل أو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة. هذا هو الوجه الأول للدعوة إلى دين الله، يتبعه الوجه الثاني وهو قوله تعالى: ﴿والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ﴾ والوعظ: هو النصح والتذكير بالعواقب من ثواب وعقاب. ويصف الله الموعظة بالحسنة أي التي تعتمد على اللين والرفق والدلائل الإقناعية.

ثم يأتي الوجه الثالث للدعوة إلى دين الله وهو قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والجدال هو الحوار في الرأي ولكن بالطريقة التي هي أحسن بلا تحامل على الذي تجادله ولا تسفيه لرأيه ولا عنف ولا غلظة حتى يطمئن المستمع إلى الداعي ويشعر منه بأن هدفه ليس الغلبة والجدل العقيم ولكن هدفه هو الإقناع والوصول إلى الحق، ويشمل الجدال بالتي هي أحسن الإعراض عما يصادفه الداعي من الأذى ممن يجادله. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي إنما عليك يا محمد تبليغ الناس دين الله وترك أمرهم بعد ذلك إلى ربك فهو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدي إلى دين الله.

هذا هو المنهج الحكيم للدعوة إلى الله إذا سارت الأمور على طبيعتها، أما إذا وقع الاعتداء على أهل الإسلام فإن الاعتداء عندئذ يقابل بمثله:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم بِهِ﴾ أي وإن أردتم أيها المؤمنون عقاب من يصدكم عن دين الله ويعتدي عليكم ويظلمكم فعاقبوه بمثل ما فعل بكم، وإنما سمي اعتداء العدو عقاباً من باب مماثلة الكلام ومشاكلته[1]. ولم يقتصر القرآن على طلب المماثلة في العقوبة بل حث على العفو والصبر على المعتدي: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِينَ﴾ ولئن صبرتم أيها الداعون إلى الله تعالى على أذى عدوكم

---

(١) المشاكلة هي التعبير عن الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته وهو فن من فنون البلاغة.

فصبركم هذا هو خير لكم لأن الصبر والعفو من أمهات الفضائل ويجعل عدوكم صديقاً حميماً.

يروى في أسباب نزول هذه الآية أنه بعد معركة أحد التي قُتل فيها حمزة عم النبي ﷺ ومُثِّلَ بجثته، فقال النبي: لئن ظهرنا عليهم «أي انتصرنا» لنمثِّلَنّ بثلاثين رجلاً مثلهم، فلما سمع المسلمون بذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثِّلَنّ بهم مُثْلَةً[1] لم يمثّلها أحد من العرب، فأنزل الله قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ فقال النبي ﷺ: نصبر ولا نعاقب.

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللَّهِ﴾ واصبر يا محمد على الأذى في سبيل ربك، وما صبرك إلا بمعونته وتوفيقه، وهنا تأكيد للأمر بالصبر ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِم﴾ ولا تحزن من إعراض المشركين عن دعوتك لهم إلى الإسلام. أو بمعنى: ولا تحزن على قتلى معركة أُحُد فإنهم قد أفضوا إلى رحمة الله ﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ولا يضق صدرك ويصيبك الغم مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الأذى إليك.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِين اتَّقَوْا والَّذِين هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ إن الله مع المتقين والمحسنين بالنصر والتأييد والحفظ. والمتقون هم الذين اجتنبوا ما حرّم الله، والمحسنون هم الذين يأتون بالأعمال على الوجه اللائق، ويشفقون على خلق الله فيمدونهم بما يسد حاجتهم، ومن ذلك نستشف أن من تخلّق بالتقوى والإحسان نال معية الله له بالنصر والتأييد والحفظ.

---

(١) المثلة: تشويه جثة المحارب بعد موته.

تعريف بسورة الإسراء

سورة الإسراء سميت بذلك نظراً لذكر معجزة إسراء النبي ـ أي انتقاله ليلاً ـ من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس في فترة قصيرة من الزمن.

وهذه السورة مكية ـ أي نزلت بمكة ـ وهي تعنى عناية خاصة بمكارم الأخلاق التي هي من الأهداف الأساسية التي جاء الإسلام لأجلها.

ففي هذه السورة دعوة إلى الإحسان إلى الوالدين، وصلة الرحم، والعطف على المسكين وابن السبيل، ونهي عن تبذير الأموال بغير حق، وتحريم قتل الأنفس ظلماً وعدواناً، ونهي عن الزنا والغش في المكاييل والموازين. كما نهت السورة عن أكل مال اليتيم والكبر والبطر.

وفي السورة موضوعات شتى نشير إلى بعضها بما يلي:

- تاريخ بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض ومعاقبة الله إياهم.
- بيان أن كل ما في السموات والأرض ومن فيهن من شيء يسبح بحمد الله ويقدسه ولكن لا نفقه تسبيحهم.
- الكلام عن البعث مع إقامة الأدلة على أن حصوله كائن وكذلك الحساب.
- الحكمة من عدم إنزال المعجزات التي اقترحها المشركون على رسول الله محمد ﷺ.
- قصة سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس عن السجود له.
- تعداد بعض نعم الله على خلقه التي تستوجب شكره.
- بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله.
- تأييد الله موسى بالمعجزات وإهلاكه فرعون وجنده غرقاً.

هذه بعض موضوعات هذه السورة، إضافة إلى موضوعات أخرى تحدثنا عنها في موضعها.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾

شرح المفردات

سبحان: تنزه وتعالى عن النقائص.

أسرى: الإسراء هو السير والانتقال ليلاً.

المسجد الأقصى: مسجد بيت المقدس.

باركنا حوله: أحللنا البركة حوله بالثمار والأنهار.

لنريه من آياتنا: لنطلعه على بعض عجائب قدرتنا تكريماً له.

آتينا: أعطينا.

الكتاب: المراد بالكتاب هنا التوراة.

وكيلاً: ناصراً ومعيناً تفوضون أمركم إليه.

ذرية: نسل.

معجزة الإسراء

يستهل الله هذه السورة بالإخبار عن حدث عظيم ومعجزة خص الله بها رسوله محمداً ﷺ بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾[(١)] أي تقدس وتنزه الله عن النقص وعما لا يليق بجلاله من السوء، فهو سبحانه أسرى برسوله محمد ليلاً، والإسراء هو السير والانتقال في جزء من الليل، ووصف محمداً بالعبودية لله (بعبده) وإضافة رسوله إليه تشريف له وتكريم، واعلاء لمنزلته، وإشعار بأن محمداً كان يقوم بواجب العبودية لله حيث بلغ فيها غاية الغايات ونهاية النهايات، والعبودية لله هي أشرف الصفات وأعلى المراتب، كما أن في وصف محمد ﷺ بالعبودية لله سداً لباب الغلوّ فيه من أتباعه كما وقع للنصارى في نبيهم عيسى عليه السلام.

والله سبحانه أسرى بعبده محمد ﷺ ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي مسجد مكة المكرمة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[(٢)] وهو مسجد بيت المقدس[(٣)] وكان يعرف بهيكل سليمان.

ومعنى الأقصى: أي الأبعد وقد سمي بذلك لبعده عن مكة ﴿الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ والبركة هي الخير والنماء، فالله أحاطه ببركات الدين والدنيا، لأن القدس مقر الأنبياء ومهبط الوحي الإلهي، كما أن هذه الأرض وما حولها من أرض الشام بارك الله فيها بالأنهار والأشجار والثمار، وفي قوله تعالى ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ ثناء عظيم على المسجد الأقصى لأنه إذا كان الله بارك ما حول المسجد الأقصى فإن بركة المسجد لا تعد ولا تحصى.

---

(١) ذكر الليل هنا للتأكيد، لأن الإسراء لا يكون إلاّ بالليل.

(٢) المسجد الأقصى: كان المسجد الأقصى في زمن إسراء النبي محمد ﷺ خراباً، لأن النبي سليمان بناه على مكان الصخرة ثم خُرِّب فكيف أطلق عليه اسم المسجد؟ والجواب على ذلك أن المسجد في حال هدمه يسمى مسجداً باعتبار ما كان عليه وما وضع له، وكل مكان يقام لعبادة الله والسجود له يطلق عليه اسم مسجد.

(٣) بيت المقدس: هي القدس وتسمى أيضاً إيلياء.

والمسجد الأقصى هو أولى القبلتين[١] وثالث الحرمين بعد مسجدي مكة والمدينة المنورة التي تشد الرحال إليها (أي السفر إليها للعبادة) وقد بناه نبي الله يعقوب وجدّد بناءه نبي الله سليمان عليهما السلام.

وقد بيّن الله الحكمة من الإسراء بقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي لكي نُري محمداً الآيات العظمى الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وعظمة ملكنا ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فالله هو السميع لأقوال عباده البصير بأفعالهم.

وقد كان الإسراء بالجسد والروح[٢] معاً يقظة لا بالمنام كما ادعى البعض.

وقد روي أن النبي ﷺ جاءه جبريل وميكائيل عليهما السلام وهو مضطجع في الحجر[٣] فحملته الملائكة وجاءوا به إلى نبع زمزم، وألقوه على ظهره، وشق جبريل صدره ثم قال لميكائيل: ائتني بطست من ماء زمزم، فأتاه به فاستخرج قلب النبي ﷺ وغسله ثلاث مرات ثم أعاده إلى مكانه ممتلئاً إيماناً وحكمة وختم عليه ثم خرج بالنبي إلى باب المسجد.

وبعدها يقول النبي ﷺ: أُتيت بالبراق (وهو دابة) أبيض حجمه فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه (أي نظره)، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة[٤] التي يربط بها الأنبياء دوابهم ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، وفي رواية أنه قال: مُثِّل لي الأنبياء فصليت بهم، ثم خرجت

---

(١) القِبلتين: القبلة هي الجهة التي يتوجه إليها المصلي في صلاته. وقد كان محمد في أول رسالته يتوجه في صلاته نحو بيت المقدس.

(٢) والأدلة على أن الإسراء بالروح والجسد: أولاً: إن بدء السورة بالتسبيح يدل على أن الأمر هو خارق للعادة. ثانياً: قوله: ﴿أسرى بعبده﴾ والإسراء هو السير ليلاً ولفظ العبد هو مجموع الروح والجسد. ثالثاً: ركوب النبي على البراق وهو دابة والدابة تحمل الجسد لا الروح. رابعاً: لو كان الإسراء بالمنام لما كذبته قريش كما سيأتي. خامساً: ذكر الله المكان فقال: ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ كما بين الله الغاية ﴿لنريه من آياتنا﴾ أي من عجائب قدرتنا. وهذا لا يحصل إلا بالجسد والروح معاً.

(٣) الحجر: ويقال له حجر اسماعيل وهو تابع للكعبة ملاصق لها.

(٤) الحلقة: المراد بها حلقة باب مسجد بيت المقدس، وفي ربط البراق هوالأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب.

فجاءني الملك جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن فقال جبريل: اخترت الفطرة[١] ثم عُرج[٢] بي إلى السماء.

وقد رُوي أن الملك جبريل صعد بالنبي محمد ﷺ من سماء إلى سماء ورأى بعض النبيين إلى أن انتهى إلى سدرة المنتهى حيث تجلى الله على رسوله بما تجلى، وأوحى إليه ما أوحى، وفرضت عليه هناك الصلوات الخمس، وهذا يدل على علو مكانة الصلاة وسمو فضلها.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام في مكة من ليلته هذه فصلى بالمسلمين صلاة الصبح ثم حدّث قومه من قريش بما جرى له فارتد بعض الناس عن الإسلام بعدما أسلموا، وأتى أناس إلى أبي بكر الصدّيق وقالوا له: هل لك في صاحبك (أي محمد) إنه يزعم أنه أُسري به إلى بيت المقدس ثم رجع في ليلة واحدة، قال أبو بكر: أوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأشهد إن كان قال ذلك لقد صدق، إني أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء (أي بالوحي الإلهي الذي ينزل عليه) فسُمي أبو بكر منذ ذلك الوقت بالصدّيق.

وطلبت جماعة من قريش ممن سافروا إلى بيت المقدس من رسول الله ﷺ أن يصف ما شاهده هناك فطفق يصفه لهم وصفاً دقيقاً، فقالوا: أما الوصف فقد أصبت فيه ولكن أخبرنا عن عيرنا (إبلنا) التي في الطريق فأخبرهم بعدد إبلها وأحوالها، وقال: إنها تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يتقدمها جمل أورق (أي رمادي) عليه غرارتان (كيسان) مخيطتان، فلما خرجوا ينشدون الإبل في اليوم الذي عينه رسول الله وجدوها كما أخبر، ومع هذا لم يؤمنوا وقالوا: إن هذا إلاّ سحر مبين.

والإسراء وقع لرسول الله وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة المنورة، وقد كان المسلمون يومئذ بمكة قلة مضطهدة تلاقي من كفار مكة أنواع العذاب، ولم يكن لبني اسرائيل يومئذ صلة ولا شأن مع المسلمين فما السرّ في إسراء النبي وذكره في

---

(١) الفطرة: فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة.

(٢) عرج: صعد.

القرآن؟ السر في ذلك أن المسلمين سينتصرون يوماً حتى تصبح مكة والقدس تحت سيطرتهم، والقرآن لم يقل من مكة إلى بيت المقدس إذ إن الكعبة في مكة لم تكن آنذاك مسجداً وإنما كانت بيتاً تقام حوله عبادة الأصنام. ولم يكن هيكل سليمان في ذاك الوقت مسجداً وإنما كان أنقاضاً، ولكن الله حين ذكر هذا الإسراء عبّر عنه بأنه انتقال من مسجد إلى مسجد وذلك بشارة للمسلمين بأن دعوتهم ستنتشر وتعلو حتى يصبح البلد الذي فيه يُضطهدون والذي تُعبد الأصنام[1] فيه مسجداً لله، وأن نفوذهم سيمتد حتى يصبح هيكل سليمان مسجداً كذلك، وهذا ما تحقق فعلاً.

كما أن حادثة الإسراء كانت تثبيتاً لقلب النبي ﷺ وذلك بعد ما ناله من أذى أهل مكة وإعراضهم عن قبول الحق.

وبعد أن بيَّن الله إكرامه رسوله محمداً بالإسراء بيّن بعد ذلك إكرامه موسى بإعطائه التوراة:

﴿وآتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إسْرَائيلَ﴾ أي وأعطينا موسى الكتاب ـ وهو التوراة ـ الذي جعلناه هدى لبني اسرائيل ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿ألاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُوني وَكِيلاً﴾ وذلك كي لا تتخذوا غيري إلَهاً تتوكلون عليه وكفيلاً تفوضون أموركم إليه.

ثم يبيّن الله منّته على بني إسرائيل بقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي أنتم يا بني اسرائيل ذريّة من حملنا مع نوح في الفلك حيث أنجيناهم من الغرق بسبب إيمانهم واتباعهم رسولنا نوحاً ﴿إنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ إن نوحاً كان متصفاً بالعبودية لنا، وإن نجاته من الغرق ومن معه في السفينة كانت ببركة شكره وإخلاصه لنا فاقتدوا به يا بني إسرائيل، وفي هذا إيماء بأن الشكر لله من أعظم أسباب الخير ومن أفضل الطاعات لله.

---

(١) دخلت عبادة الأصنام إلى بيت الله الحرام في مكة بعد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ولما أرسل الله رسوله محمداً بدين الإسلام حطّم كل الأصنام التي كانت في الكعبة ودعا إلى عبادة الله وحده.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

شرح المفردات

قضينا: حكمنا، وقيل أوحينا إليهم.

في الكتاب: في التوراة.

ولتعلن علوّاً كبيراً: تستكبرون عن طاعة الله وتبغون بغياً عظيماً.

فإذا جاء وعد أولاهما: فإذا جاء وعد عقاب المرة الأولى من افسادكم يا بني اسرائيل.

بعثنا عليكم: سلطنا عليكم.

أولي بأس: أصحاب قوة في الحرب والبطش.

فجاسوا خلال الديار: فطافوا خلال دياركم يمعنون فيكم قتلاً وسبياً.

رددنا لكم الكرة عليهم: وجعلنا لكم الغلبة عليهم بعد أن كانت لهم.

أكثر نفيراً: أكثر عدداً مما كنتم.

ليسوءوا وجوهكم: ليجعلوا الحزن بادياً على وجوهكم.

وليتبّروا ما علوا تتبيرا: وليدمروا ويهلكوا ما استولوا عليه إهلاكاً شديداً.

حصيراً: محبساً وسجناً وبساطاً.

تحذير بني إسرائيل من مغبة الإفساد في الأرض

ثم يبيّن القرآن ما أصاب بني إسرائيل من اضطهاد جزاء إفسادهم في الأرض: ﴿وَقَضَيْنَا إلى بَني إسرائيل في الكِتَابِ﴾ أي وحكمنا بما قضينا على بني إسرائيل فيما كتبناه في سابق علمنا في اللوح المحفوظ ﴿لَتُفْسِدُنَّ في الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي سيحصل منكم الإفساد في أرض فلسطين والشام مرتين ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ أي لتستكبرن عن طاعة الله وتظلمون الناس ظلماً شديداً ﴿فإذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا﴾ فإذا جاء موعد عقاب أولى المرتين على إفسادكم ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُم عِبَاداً لَنَا أولي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أرسلنا عليكم عباداً لنا ذوي بطش شديد في الحروب ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ فطافوا خلال مساكنكم يقتلون رجالكم ويسبون نساءكم ويسلبون أموالكم ﴿وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ وكان هذا العذاب الذي سلطه الله عليكم وعداً محققاً، والله لا يخلف وعده، هذا وقد كان إفسادهم في المرة الأولى قتلهم شعياء وارتكابهم المعاصي، فسلط الله عليهم بختنصّر البابلي.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِم﴾ ثم رددنا لكم الغلبة على أعدائكم بعد أن تبتم عن ارتكاب المعاصي وذلك بمعونة الفرس على يد كورش ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبنينَ﴾ أي أعطيناكم الأموال الكثيرة والذرية الوافرة ﴿وَجَعَلْنَاكُم أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ وجعلناكم أكثر عدداً ورجالاً.

﴿إنْ أَحْسَنْتُم أَحْسَنْتُم لأَنْفُسِكُم﴾ إن أحسنتم أعمالكم - يا بني إسرائيل - فأطعتم ربكم وأصلحتم نفوسكم نفعتم أنفسكم فيفتح الله لكم أبواب رحمته ويدفع عنكم السوء ﴿وَإنْ أَسَأْتُم فَلَهَا﴾ وإن عصيتم ربكم فإنما تسيئون لأنفسكم حيث تستوجبون عقاب الله وسخطه ﴿فَإذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ فإذا جاء وقت عقاب المرة الثانية على إفسادكم وكان ذلك بسبب قتلهم النبي يحيى عليه السلام ﴿لِيَسُوءوا وُجُوهَكُم﴾ أي أرسلنا عليكم أعداءكم ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم ويجعلوا آثار الكآبة بادية عليكم بما يلحقكم من الحزن والحسرة والذل ﴿وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كما دَخَلوهُ أوَّلَ مرة﴾ وليدخل أعداؤكم مسجد بيت المقدس كما دخلوه أول مرة حين

أفسدتم في الأرض ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ أي ويدمروا ويهلكوا ما تغلّبوا عليه من بلاد بني إسرائيل إهلاكاً شديداً لا يوصف.

وقد تم ذلك في عهد حكم الروم أيام القائد طيطس فقد قصد بيت المقدس وأوقع باليهود وأمعن فيهم أسراً وقتلاً للأنفس، ونهباً للأموال[١].

﴿عَسَى رَبُّكُم أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّم عُدْنَا﴾ أي لعلَّ ربكم أن يرحمكم ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم يا بني إسرائيل إن تبتم عن معاصيكم ولازمتم طاعته، وإن عدتم إلى عصيان ربكم وقتل رسله والإفساد في الأرض عاقبكم الله بذنوبكم ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أي جعل الله جهنم مهاداً وفراشاً للكافرين، وقيل: محبساً وسجناً لهم فلا مهرب لهم منه.

وقد عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض في عهد النبي محمد ﷺ فحاكوا المؤامرات ضده وحرضوا المشركين على حرب المسلمين بعد أن تحالفوا معهم، كما حاولوا قتل النبي ﷺ، فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم الكثير، وبعد وفاة النبي وتولّي عمر الخلافة أجلاهم عن جزيرة العرب كلها جزاء غدرهم بالنبي ﷺ والمسلمين.

ثم في نهاية القرن الثالث عشر بعد الميلاد توالت الاضطهادات على اليهود من دول أوروبا لفسادهم وسوء أفعالهم فطردوا من إسبانيا والبرتغال وانكلترا وفرنسا والنمسا وهولندا وغيرها من الدول. وفي روسيا طُردوا سنة ١٥١٠ م ثم عادوا إليها وكانوا معرَّضين لأنواع شتى من الاضطهادات أبرزها الذي حصل في أوكرانيا طيلة عام ١٩١٩، حيث ذبح أكثر من مائة ألف يهودي رجالاً ونساء وأطفالاً[٢].

---

(١) اضطربت الروايات فيمن سلّط الله على بني اسرائيل في المرة الأولى وفي المرة الثانية، والقرآن لا ينص على جنسية هؤلاء المغيرين على بني اسرائيل والمقصود في ذلك بيان سنة الله في خلقه بأن كل شعب يعيث في الأرض فساداً يسلّط الله عليه من يسومه سوء العذاب.

(٢) راجع كتاب (اليهود في القرآن) للمؤلف.

وفي ألمانيا كثر اضطهادهم على يد النازيين في الحرب العالمية الثانية وأزهقت فيها أرواح مئات الألوف منهم.

وها هم اليوم في القرن العشرين يعودون إلى فسادهم في الأرض فأخرجوا العرب من ديارهم وساموهم أنواع العذاب، وتفاقم خطرهم على جميع الدول العربية التي تحيط بهم وقد صار حالهم كما وصفهم الله سابقاً قبل حلول العذاب بهم ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكم بِأَمْوَالٍ وَبنينَ وَجَعَلْنَاكُم أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ نعم فالأموال تتدفق عليهم من أقطار الأرض من تعويضات حصلوا عليها من ألمانيا وأموال تتدفق عليهم باستمرار من الولايات المتحدة ومن الجاليات اليهودية في العالم، كما أمدهم الله ببنين وهم المهاجرون المقاتلون الذين يتدفقون على إسرائيل باستمرار.

ولكن عليهم أن لا يغتروا بما وصلوا إليه من قوة فسيسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب تصديقاً لوعد الله القاطع ﴿وَإن عُدْتُّم عُدْنا﴾ أي وإن عدتم إلى فسادكم فسنعود إلى معاقبتكم والانتقام منكم. وسُنَّة الله في خلقه لا تتغير.

وإن تسلط اليهود حالياً على أرض فلسطين وإخراج العرب من ديارهم وتشريدهم كان سببه الفرقة والخيانة التي شاعت فيهم وإعراضهم عن دينهم وتآمر الدول الكبرى عليهم. ولكن عندما يعود العرب إلى دينهم وتتوحد كلمتهم ويرفعون شعار الجهاد عندئذ ستتغير معايير القوى وستتحقق آنذاك كلمة الله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].



﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾

شرح المفردات

يهدي للتي هي أقوم: يرشد للطريقة التي هي أعدل.

أجراً: ثواباً.

أعتدنا: هيأنا.

عجولا: أي بالدعاء على نفسه بالشر ولا ينظر إلى عاقبته.

آيتين: علامتين على وجود الله.

فضلاً من ربكم: لتطلبوا رزقاً من خالقكم.

فمحونا آية الليل: فجعلنا آية الليل وهي القمر وقد طمسنا النور عنه.

فضل الله على الناس

ثم يبيّن الله فضله على الناس بإنزال القرآن:

﴿إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي للَّتي هِيَ أقْوَمُ﴾ أي إن هذا القرآن الذي أنزلناه على رسولنا محمد يرشد الناس إلى الملّة التي هي أقوم الملل وأعدلها وذلك لما تحتويه من عقائد وعبادات وتشريعات في محيط الأسرة والمجتمع والعلاقات بين الأفراد والأمم، وفي نظام الحكم، ومحاربة الإجرام والفساد **﴿وَيُبَشِّرُ المُؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾** كما يبشر المؤمنين الذين يؤمنون بوحدانية الله وبرسوله محمد ﷺ ويعملون صالح الأعمال التي أمرهم بها **﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾** والجزاء

الكبير الذي بشرهم الله به هو الجنة ونعيمها في الآخرة ﴿وأن الذينَ لا يُؤمِنون بالآخِرَة﴾ وإن الذين لا يصدقون بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء على الأعمال يوم القيامة ﴿أعْتَدْنَا لَهُم عَذَاباً اليماً﴾ أي هيأ الله لهم في جهنم عذاباً شديد الألم.

فالاعتقاد بالآخرة هو ركن من أركان الدين وعنصر فعال لخير الإنسان. فالذي يلجم الإنسان عن الشرور والآثام هو الاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت حيث يكافأ فيها على أعماله الصالحة ويعاقب على أعماله السيئة، أما المنكر للآخرة فكثيراً ما يطلق العنان لشهواته، ولا يبالي بما يقترفه من آثام لأنه لا يؤمن بالثواب والعقاب بعد الموت. بالإضافة إلى ذلك فهو يعيش في فراغ روحي ليس له العزاء بما يصيبه من مصائب يؤجر الصابر عليها عند الله.

ثم يبيّن الله طبيعة الإنسان في اللجوء إلى الدعاء في بعض الظروف الطارئة:

﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي ويدعو الإنسان ربه بالشر على نفسه وأهله عند الغضب مثل دعائه بالخير، ولو استجيب له في الدعاء بالشر كما يستجاب له في الخير لوقع في المصائب والبلايا. وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للإنسان أن يدعو على نفسه وأولاده بالشر مهما اشتد به الغضب ومهما صادفه من سوء وبلاء، لأنه قد يستجاب دعاؤه في الشر فيقع في الهلاك ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ أي وإن في طبع الإنسان العجلة في تنفيذ رغائبه دون التفكير في العواقب، فحريٌّ بالإنسان أن يتقبل كل ما يصادفه من مصائب بروية وصبر ولا يتسرع في تصرفاته لئلا يقع في محاذير لا تحمد عقباها.

ويتابع القرآن فيبيّن فضل الله على الناس بخلق الليل والنهار حيث يقول الله تعالى:

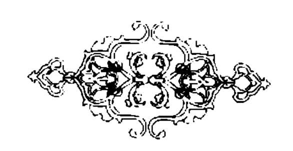
﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهارَ آيتين﴾ أي وجعلنا الليل والنهار بهيئآتهما وتعاقبهما علامتين تدلان على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿فَمَحَوْنا آية الليل﴾ فجعلنا آية الليل وهي القمر خالية من الأشعة فكان الظلام للاستراحة والسكون فيه ﴿وَجَعَلْنَا آية النَّهَارِ

﴿مُبْصِرَةً﴾ وجعلنا آية النهار وهي الشمس مشعّة مضيئة ليبصر الناس ما يحتاجونه لمعاشهم ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُم﴾ لتطلبوا الرزق فيه من فضل الله وتنجزوا فيه مصالحكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ﴾ ولتعلموا من تعاقب الليل والنهار عدد السنين وحساب الأشهر والأيام والساعات، وبهذا النظام انتظمت حياة الإنسان وبنى عليها أسس حياته سواء في تعيين وقت العبادات أو وقت العمل في المؤسسات، أو المصانع، أو المصالح المختلفة، أو المدارس والجامعات.

﴿وَكُلَّ شَيءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ وكل شيء تفتقرون إليه أيها الناس مِمّا فيه منافع لكم في مصالح دينكم ودنياكم قد بيّناه بياناً واضحاً لا التباس فيه.

أما لو كانت الدنيا نهاراً مستمراً ليس فيها ليل أو العكس بأن كانت ليلاً مستمراً ليس فيها نهار لما انتظمت عجلة الحياة ولدب فيها الفوضى، فسبحان من خلق كل شيء بحكمة، وفي هذا يذكر الله منّته العظمى على خلقه بقوله:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣].



﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

شرح المفردات

ألزمناه طائره في عنقه: أي علقنا في رقبته كتابه المحصي لحسناته وسيئاته بحيث لا يفارقه.

منشوراً: نشره أي بسطه ضد طواه.

حسيباً: محاسباً وشاهداً على نفسك.

ولا تزر وازرة وزر أخرى: ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى.

ففسقوا فيها: فخرجوا عن طاعة الله وعصوا رسله.

وكم أهلكنا من القرون: وكثيراً ما أهلك الله من الأمم.

مجازاة الإنسان على أعماله

ثم يبيّن الله تعالى أن الإنسان محاسب على أعماله يوم القيامة:

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ الطائر هنا هو العمل، وسمي العمل طائراً لأن العرب كانوا إذا أرادوا فِعْل أمر ما أو القيام بسفر اطلقوا طائراً ونظروا إليه، فإذا طار يمنة تفاءلوا وأقدموا على ذلك الأمر وإذا طار يسرة تشاءموا وامتنعوا عن فعل ما عزموا عليه، فلما كثر منهم ذلك سموا عمل الإنسان من خير أو شرّ بالطائر بطريق الاستعارة. أما ذِكْر العنق فالمراد به أن عمل الإنسان ملازم له ملازمة القلادة أو الغلّ للعنق، وإنما خص الله العنق من بين سائر الأعضاء لأن عمل الإنسان إما أن يكون خيراً فيزينه، أو شرّاً فيشينه، وما يزينه يكون كالحلي في العنق والذي يشينه فهو كالغلّ **﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾** ونظهر له يوم القيامة ـ يوم

البعث والجزاء ـ كتاباً مدونة فيه أعماله فيراه جلياً لا يملك إخفاءه أو إنكاره ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ ويقال له: اقرأ كتابك المدوّنة فيه اعمالك، حسبك أن تكون نفسك اليوم شاهدة على أعمالك حاسبة عليك سيئاتك، وحاسبة عليك حسناتك ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ من اتبع هدى الله وسلك طريق الحق فهو في ذلك ينفع نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن ضل عن هدى الله أو أعرض عن الحق فإن إثم ضلاله يصيبه هو لا يتجاوزه إلى غيره، فكل إنسان محاسب عن نفسه مجزيٌّ على طاعة ربه ومعاقب على معصيته إياه ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي ولا تحمل نفس آثمة ذنب نفس أخرى، ولا تؤاخذ نفس بذنب غيرها ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ ولا يعاقب الله الناس على ظلمهم وآثامهم إلا من بعد أن يبعث فيهم رسولاً من عنده يهديهم إلى الحق وينذرهم من عذاب ربهم، فإن أصروا على عصيانهم عاقبهم الله بما يستحقونه من عذاب في الدنيا والآخرة.

ثم يبيّن الله أسباب إهلاكه الأمم بقوله:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي وإذا أردنا أن نهلك أهل قرية بسبب مخالفتهم الأنبياء وتكذيبهم إياهم ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ وفي معنى (أمرنا) ثلاثة أقوال:

الأول: في الكلام إضمار تقديره: أمرنا مترفيها بالطاعة فلم يمتثلوا ولكن فسقوا أي خرجوا عن طاعتنا.

الثاني: بمعنى أكثرنا عدد المترفين في القرية. يقال: أمرت الشيء وآمرته (بمد الألف) بمعنى كثّرته.

الثالث: قرئت (أمّرنا) بتشديد الميم أي جعلنا مترفيها أمراء متسلطين على قومهم.

فالمترفون هم المتنعمون الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش. وقد خص الله المترفين بالذكر لما جرت به العادة من أن سواهم يكونون تبعاً لهم، وأن عامة الشعب يقلدونهم في أفعالهم، كما أنهم اسرع إلى الفجور واقدر على الوصول إلى سبله.

فالترف يؤدي إلى فساد الأمة وميوعتها، وإلى انكبابها على شهواتها وملذاتها،

فتستهتر بالقيم والمقدسات، وتستبيح الظلم في سبيل تحقيق مآربها والحصول على شهواتها، فتخرج الأمة بذلك عن طاعة ربها وتستحق العذاب كما قال تعالى ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي ثبت ووجب عليها العذاب ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ أي أهلكناها إهلاكاً تاماً.

ويتابع الله قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ وكم: بمعنى كثير، والقرون جمع قرن وهي الأمة التي تأتي بعد الأمة، وقيل أهل زمان واحد. والمعنى: وكثيراً ما أهلكنا من الأمم الكافرة الظالمة من بعد زمن نوح كأمم: عاد، وثمود، وفرعون وجنده، وقوم لوط ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ وكفى أن يكون ربك يا محمد خبيراً بذنوب خلقه مطلعاً عليهم فلا يخفى عليه شيء، وهنا إشارة إلى أن انتشار الذنوب في قوم هو نذير بهلاكهم.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

شرح المفردات

العاجلة: الدار العاجلة والمراد بها الدنيا.

يصلاها: يدخلها ويقاسي حرها.

مذموماً: ملوماً، ناله الذم.

مدحوراً: مطروداً من رحمة الله.

محظوراً: ممنوعاً عن أحد.

فتقعد: القعود هنا بمعنى الصيرورة أي ويصير حالك.

مخذولاً: غير منصور ولا معان من الله.

الدعوة إلى تفضيل الآخرة على الدنيا

وبعد أن بيّن القرآن بأن الذنوب تؤدي إلى هلاك الأمم دعا بعد ذلك إلى تفضيل الآخرة على الدنيا:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ﴾ العاجلة: هي الحياة الدنيا، أي من كان يريد بعمله الدنيا، لها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي، لا يوقن بالآخرة، ولا يرجو ثواباً من الله، ولا يخشى عقاباً منه ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي عجّل الله له فيها لمن يريد له ذلك من السعة في العيش والوفرة في المال. فليس كل من طلب الدنيا وملذاتها يحصل على ما يريد، لأن العطاء في الدنيا مقيد بمشيئة الله ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ أي وبعدها أعد الله له في الآخرة جهنم يدخلها ليقاسي حرها، وهو ملوم بما عمل من سوء، مطرود من رحمة الله.

﴿ومَنْ أرادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ﴾ ومن قصد بعمله الآخرة فأطاع الله وعمل بما يرضيه وهو مصدق بالله وبجزائه ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَشْكُوراً﴾ فأولئك كان عملهم مقبولاً عند الله ينالون الثواب عليه بحسن الجزاء ﴿كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي كل واحد من الفريقين: الفريق الذي سعى للدنيا فقط، والفريق الذي سعى للآخرة، هذان الفريقان يمدهما الله بعطائه فيرزقهما جميعاً من رزقه في الدنيا إلى استيفاء أجلهم ثم يختلف مصيرهما في الآخرة ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ وما كان عطاء ربك ممنوعاً عن أحد سواء أكان الناس مؤمنين أم كافرين ما داموا قد اتخذوا الأسباب للحصول على الرزق.

﴿انظُر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ﴾ انظر بعين الاعتبار كيف فضلنا بعض الناس على بعض في الرزق والمواهب والمراتب، فمن غني وفقير، وقوي وضعيف، وعالم وجاهل، وعاقل وأحمق، كل ذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن إدراكها ﴿وللآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وأكبرُ تَفْضِيلاً﴾ والتفاوت في الآخرة أكبر وأعظم لتفاوت منازلهم في الجنة حسب أعمالهم، فينبغي ابتغاء الآخرة التي يكون فيها التفاضل الحقيقي.

﴿لا تَجْعَلْ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ[1] مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً له في ألوهيته، فأخلص العبادة لله وحده، فإنك إن جعلت معه إلَهاً آخر وعبدت معه سواه تصبح ملوماً على ما ضيعت من شكر الله على ما أنعم به عليك من نعمه، مخذولاً لا ينصرك ربك بل يتركك إلى من عبدته معه وهو لا يملك لك ضرّاً ولا نفعاً.

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر وصايا للإنسان وحِكَمٍ تعود عليه بالخير في دينه ودنياه في الآيات التي ستأتي فيما بعد، وقد ذكر الله منها اثنتي عشرة حكمة كما يلي:

١ ـ عدم الشرك بالله، أي الإقرار بوحدانية الله وعبادته وحده.
٢ ـ الإحسان للوالدين.
٣ ـ الإحسان إلى الأقارب وغيرهم.
٤ ـ عدم التبذير في الأموال وعدم البخل والوقوف في موقف وسط بينهما.
٥ ـ عدم قتل الأولاد خشية الفقر.
٦ ـ النهي عن الزنا.
٧ ـ النهي عن قتل النفس بغير حق.
٨ ـ النهي عن أكل مال اليتيم.
٩ ـ الدعوة إلى الوفاء بالعهد.
١٠ ـ الدعوة إلى إيفاء الوزن والكيل بالعدل.
١١ ـ النهي عن اتباع الإنسان ما لا علم له به.
١٢ ـ النهي عن التكبر.

ثم يشير الله إلى هذه الوصايا جميعها بقوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ﴾ هذا ولما كان الشرك بالله أهم هذه الوصايا فقد عاد القرآن فذكره في آخر هذه الوصايا بقوله: ﴿ولا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى في جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ وبهذا يكون النهي عن الشرك قد ذكر مرتين، مرة في أول الوصايا ومرة في آخرها للأهمية في ذلك. وإليكم تفصيل ذلك في الآيات التالية:

---

(١) لفظ (فتقعد) يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعد، ويلقي ظل الضعف، فالقعود هو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزاً. لأن القعود لا يوحي بالحركة ولا تغير الوضع (عن كتاب في ظلال القرآن).

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾

شرح المفردات

قضى ربك: أوجب وألزم.

أف: صوت يدل على التضجر والاستثقال.

تنهرهما: تزجرهما.

قولاً كريماً: قولاً حسناً جميلاً.

واخفض لهما جناح الذل: ألن جانبك لهما تواضعاً وتذللاً.

للأوابين: الراجعين إلى الله بالتوبة وترك السيئات والعمل بطاعة الله.

وآت ذا القربى حقه: وأعط القريب في النسب حقه من البر والصدقة.

ابن السبيل: المسافر الذي انقطع عن اهله ونفذ منه المال.

تبذّر: التبذير هو الإسراف في إنفاق المال دون حق.

ابتغاء: طلباً ورغبة.

ترجوها: تتمناها.

قولاً ميسوراً: قولاً ليناً تطيب به نفوسهم.

الإحسان إلى الوالدين والأقارب والمحتاجين

ويتابع القرآن فيأمر الإنسان بأن يخص ربه وحده بالعبادة مع البر والعطف على الوالدين بصورة بليغة لا تجد ما يوازيها تأثيراً وروعة في أي كتاب ديني :

﴿وَقَضَى رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدوا إلاَّ إيَّاهُ وبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً﴾ أي أمر ربك أمراً جازماً وأوجب ألا تعبدوا إلاّ إياه دون سواه، ومع عبادة الله أن تحسنوا إلى الوالدين وتبروهما. والملفت للنظر أن الله قرن الإحسان إلى الوالدين بعبادته وفي هذا منتهى التوقير لهما والاعتناء بهما، وذلك لما قد بذلا من جهد في تربية أولادهما وتنشئتهم في جو من الحنان والعطف مما يستلزم بالغ الشكر لهما، ولهذا نرى أن الله قرن الشكر له سبحانه بالشكر لهما حيث قال في موضع آخر من القرآن :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

فالأم حملتك أيها الإنسان تسعة أشهر وأنت جنين، وعانت الشدائد في السهر عليك بعد الولادة وأرهقت نفسها في حفظك، والأب كد في طلب الرزق للإنفاق عليك فكان لزاماً على البشر مكافأتهما ورد الجميل بالإحسان إليهما.

ثم فصّل القرآن ما يجب من الإحسان إلى الوالدين عندما يصلان معاً أو يصل أحدهما إلى حال الضعف أو العجز عند تقدمهما في السنّ، وأمر أن يتبع معهما أموراً خمسة هي غاية ما يصدر عن الإنسان من المعاملة الحسنة :

١ - ﴿إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أحَدُهُمَا او كِلاهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ أي إذا بلغ الوالدان أو أحدهما الكبر في السن وهما في كنفك فلا تقل لهما: أُفٍّ، وهو صوت ينبيء عن الضجر من الأبوين والاستثقال منهما عندما يرى الولد منهما أموراً لا يستسيغها أو عندما يعينهما على قضاء حوائجهما.

٢ - ﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تزجرهما عندما ترى منهما أمراً لا يعجبك.

٣ ـ ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ وقل لهما كلاماً حسناً جميلاً طيباً مقروناً بالاحترام.

٤ ـ ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي ألن جانبك متذلّلاً لهما تواضعاً وشفقة بهما، وقد مَثّل القرآن كيفية هذا التواضع بحال الطائر الذي إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحيه، وإذا أراد النزول خفض جناحيه، فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وعدم التكبر. وليكن خفض جناحك لهما بغية رحمتك لهما وعطفك عليهما. فالقرآن يرشد الإنسان بأن تكون عشرته لوالديه في حدود التذلل لهما في أقواله وأفعاله ومعاملته.

٥ ـ ﴿وَقُلْ رَبِّ ارحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ أي ولما كنت أيها الإنسان لا تستطيع أن تفي حق الوالدين مهما بالغت في البر بهما، كان خليقاً بك أن تطلب من الله أن يرحمهما جراء ما بذلاه من تضحية وجهد في تربيتهما لك.

﴿رَبُّكُم أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُم إِنْ تَكُونوا صَالِحِينَ﴾ أي إن الله الذي خلقكم ورباكم بنعمه وفضله هو أعلم بما في ضمائركم من تعظيم شأن الآباء والأمهات والبر بهم أو الاستخفاف بحقوقهم، فإن تكونوا قاصدين طاعة الله بالبر بالوالدين ثم صدرت منكم بعض الهفوات والأذى في حقهم ﴿فَإِنَّهُ كَانَ للأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ فإن الله يغفر للذين يرجعون عن ذنوبهم ويتوبون إلى الله عما صدر منهم من هفوات أو أذى نحو والديهم.

ثم أوصى الله بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم بقوله:

﴿وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ﴾ أي وأعط الأقارب حقهم من الإحسان، والأقارب هم من تصلهم بالإنسان صلة النسب عن طريق الأب أو الأم، كالإخوة والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولادهم. وحق الأقارب يكون في صلتهم وحسن معاشرتهم والبرّ بهم وأداء ما أمكن من الخير لهم، ودفع ما أمكن من الشر عنهم، وإعانة محتاجهم بالمال. ثم أضاف الله قوله: ﴿وَالمِسْكِينَ وابنَ السَّبِيلِ﴾ والمسكين

هو المحتاج الذي يسأل الناس، وابن السبيل: هو المسافر الذي انقطع عن بلده وليس له مال يسد حاجته، وقد أمر الله باعطائهما حقهما من المال وغيره بما يسد حاجتهما.

ثم ينهى القرآن عن التبذير بصورة بليغة: ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ والتبذير هو إنفاق المال بإسراف فيما لا ينبغي كإنفاقه في المعاصي والشهوات ويعلل الله ذلك بقوله: ﴿إنّ المبذِّرِينَ كانوا إخْوانَ الشَّيَاطينِ﴾ والمراد بإخوة الشياطين المماثلة لهم في كل ما لا خير فيه من صفات السوء التي من جملتها التبذير، وهذا الوصف للمبذر هو حض له على ترك التبذير لأن الإنسان العاقل يأنف أن يكون أخاً للشيطان. فالإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان فإذا فعله الإنسان فإنه يكون بذلك قد أطاع الشيطان واقتدى به ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ وذلك بسبب عصيانه لربه وإفساده في الأرض وإضلاله للناس، وكذلك كل من رزقه الله مالاً فأنفقه في غير مرضاة الله وفي غير موضعه كان كفوراً لنعمة الله عليه.

﴿وإما تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابتغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ ربِّكَ تَرْجُوهَا﴾ وإن أعرضت عن هؤلاء الأقارب والمساكين وأبناء السبيل الذين أمرتك بالإحسان إليهم، وذلك لعسر أصابك أو فقر نزل بك وأنت ترجو رحمة من ربك أن ييسر لك ويرزقك واثقاً بفضله وكرمه ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ فقل لهم قولاً حسناً يبعث فيهم الأمل، مع الوعد الجميل ببرهم عندما يزول عسرك وأنت بهذا القول تدخل السرور إلى نفوسهم وتفتح باب الرجاء أمامهم.



﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾

شرح المفردات

ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك: أي لا تبخل بخلاً شديداً.

محسوراً: نادماً أو منقطعاً لا شيء عندك.

تبسطها كل البسط: تفتحها للإنفاق دون حساب.

يبسط الرزق: يوسع في الرزق.

خشية إملاق: خوف الفقر.

خِطأً كبيراً: إثماً عظيماً.

فاحشة: فعلاً شديد القبح.

وساء سبيلاً: وبئس طريقاً في الحياة.

لوليه: لوارثه.

سلطاناً: صاحب حق على القاتل بالقصاص منه أو أخذ الدية.

وصايا حكيمة من الله

ويتابع القرآن فيذكر بعض الوصايا التي تعود بالخير على الإنسان:

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَـةً إِلَى عُنُـقِكَ﴾ أي لا تبخل بخلاً شديداً، واليد المغلولة: هي المقيدة بالغلّ، والغلّ هو القيد وهو طوق من حديد أو جلد يجعل في العنق أو اليد. وهنا استعارة تمثيلية للبخل حيث مُثِّل البخيل الذي امتنعت يده عن

الإنفاق والعطاء بمن قيِّدت يده في عنقه بحيث لا يقدر على مدها لإنفاق المال، وهكذا شأن البخيل يمسك يده عن التصرف في ماله فلا ينفق منه شيئاً إلاّ النزر اليسير، ويقتّر على أهله ويمنع ماله عن الخير العام ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ولا تفتح يدك فتنفق كل ما عندك وقد عبّر الله عنها باستعارة تمثيلية أيضاً حيث شبه الله الإسراف في المال بمن يمد يده كل المد في الإنفاق بحيث لا يبقى معه شيء من المال ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ فتصير ملوماً عند الله وعند الناس في الحالين، يلومك الناس ويذمونك بسبب بخلك، أو يلومونك على إتلاف مالك. محسوراً: والحسرة الغم على ما فاته والندم عليه[١].

وتأمل قوله تعالى: ﴿فتقعد﴾ فهي تصور حالة الملوم المغموم لأن القعود يوحي بالعجز عن طلب المرام ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إن ربك يا محمد يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء لحكمة بالغة، فمن الناس من يصلحهم الفقر ويفسدهم الغنى، كما وأن من الناس من يصلحهم الغنى ويفسدهم الفقر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التوسعة في الرزق على الإنسان ليست دليلاً على أنه مكرم عند الله كما أن التضييق في الرزق لا يعدّ دليلاً على سخط الله عليه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ إنه سبحانه الخبير بأحوال الناس البصير بما فيه مصالحهم.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أولادكُم خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾ أي لا تقتلوا أولادكم خوفاً من الفقر، وقد كان بعض العرب في الجاهلية يئدون بناتهم ـ أي يدفنونهن أحياء ـ خوف الفقر وبعضهم خوف العار، فنهاهم الله عن ذلك وضمن لهم أرزاقهم بقوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾ فالله قدم الاهتمام برزق الأولاد على رزق الآباء لإدخال الطمأنينة إلى قلوبهم ﴿إِنَّ قَتْلَهُم كَانَ خِطأً كبيراً﴾ إن قتلهم هو ذنب عظيم.

﴿ولا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ أي لا تقربوا الزنا بمباشرة أسبابه ودواعيه، وهو أبلغ من

---

(١) تقول العرب للبعير: محسور إذا انقطع سيره أي تصبح منقطعاً عن تحقيق رغائبك بالمال.

القول (ولا تزنوا) لأن كلمة تقربوا تفيد النهي عن الاقتراب عن مقدمات الزنا ودواعيه من إدامة النظر بشهوة إلى محاسن المرأة ولمسها وتقبيلها والاختلاء بها فهذه أمور لا تحمد عقباها. لذا أمر الله كلاً من المؤمنين والمؤمنات بغض البصر كلٌ إلى الآخر كما نهى الله المرأة أن تبدي زينتها لرجل لا يحل له ذلك منها ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ إن الزنا رذيلة واضحة القبح ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ وبئس طريقاً لما يؤدي إلى نتائج وخيمة. هذا وإن الزنا من كبائر الإثم التي أوعد الله عليها بالعذاب يوم القيامة.

ومما يلفت النظر أن النهي عن الزنا توسط بين النهي عن قتل الأولاد وعن النهي عن قتل النفس الإنسانية حيث قال الله سبحانه بعد النهي عن الزنا ﴿ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّم الله﴾ وذلك لأن الزنا يحمل معنى القتل من نواحٍ شتى وإليك البيان:

فالزنا قد ينشأ عنه الحبل ويتبع ذلك الرغبة في الإجهاض الذي هو قتل للجنين للتخلص من العار، والزنا قتل للأسرة وما تحمل من روابط الود والرحمة، فسهولة قضاء الشهوة عن طريق الزنا تجعل الإنسان يتحلل من روابط الأسرة عن طريق الزواج وفي هذا هدم لقداسة الأسرة التي هي الدعامة الأولى لتماسك المجتمع.

هذا وإن المرأة إذا باشرت الزنا أصابها الذل والمهانة والتعاسة وينفر الناس من الاقتران بها وفي هذا قتل لكرامتها وسعادتها ومستقبلها.

والزنا فيه قتل للنفس الإنسانية عن طريق التقاط مرض فقدان المناعة المكتسبة المسمى بـ (السيدا) فقد ينقل هذا المرض الرجل المصاب به إلى المرأة التي يزني بها وتنقله المرأة إلى كل ولد تنجبه، أو يلتقط الرجل السليم هذا المرض من المرأة التي يزني بها المصابة بهذا المرض. وهذا المرض من أخطر الأمراض التي تصيب البشر حالياً، ولم ينفع له علاج حتى الآن، وقد انتشر هذا المرض انتشاراً مريعاً في العالم وذلك بسبب الزنا الذي هو من أهم العوامل لانتشاره.

وفي شيوع الزنا اختلاط الأنساب واشتباهها فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي ولدته الزانية أهو منه أو من غيره فلا يقوم بتربيته، أو تعهده فيقتل مستقبله.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بِالْحَقِّ﴾ أي ولا تعتدوا بالقتل على النفس الإنسانية التي حرم الله قتلها، ما لم ترتكب جرماً يستوجب قتلها كما إذا ارتد مسلم عن دينه أو قتل مؤمناً عمداً أو ثبت زناه بعد إحصان، وفي هذا يقول النبي ﷺ: لا يحل دم امرىء يشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة[1].

ثم يبين الله ما يترتب على من قُتِلَ مظلوماً: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ أي ومن قتل ظلماً بغير حق فقد جعل الله لوليه وهو من له حق المطالبة بدمه ممن يرثه سلطة على القاتل بالاقتصاص منه، أو العفو عنه مقابل أخذ الدية من القاتل، أو التنازل عن الدية ﴿فَلا يُسْرِفْ في القَتْلِ﴾ وبهذا الحق الذي أعطاه الله لولي القتيل يكون الواجب عليه ألاّ يسرف في القتل فيقتل غير القاتل أو يقتل قتيلين ﴿إنَّه كَانَ مَنْصُوراً﴾ أي فحسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص على خصمه فلا يبغ ما وراء حقه.

ولا بد من الإشارة إلى أن إنزال القصاص بالقاتل لا يقيمه إلاّ الحاكم أو من ينوب عنه ولا يجوز لأحد أن يقتص من أحد.

والحكمة في جعل مصير القاتل بين يدي الورثة وينفذه الحاكم هي الحيلولة دون الأخذ بالثأر أو الانتقام بأن يقتل أهل القتيل بدلاً من القاتل عدة أفراد من عائلته كما كان يفعل العرب في الجاهلية قبل الإسلام وكما يجرى الآن في بعض المجتمعات المتخلفة.

(١) رواه البخاري ومسلم.

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

شرح المفردات

يبلغ أشده: يبلغ حد الرجولة في الجسم والعقل.

بالقسطاس المستقيم: بالميزان العدل.

أحسن تأويلاً: أحسن مآلاً وعاقبة.

لا تقف: لا تتبع، مأخوذ من قولهم قفوت فلاناً إذا تتبعت أثره.

مرحاً: فرحاً واختيالاً وفخراً وتكبراً.

مدحوراً: مُبعداً من رحمة الله.

من وصايا الله أيضاً

ويتابع القرآن الكريم فيوصي باليتيم خيراً، قال تعالى:

﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إلاّ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الخطاب هنا لأولياء اليتيم الذين يقومون بكفالته، وفي النهي عن مقاربة مال اليتيم مبالغة في النهي عن التعرض لما يقتنيه من مال أو تبذيره، والمراد بالتي هي أحسن أي بالطريقة المثلى التي يكون فيها حفظ ماله واستثماره بالتجارة وغيرها، وكذلك بأن لا يشتري منه ولا يستقرض من ماله **﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾** حتى يبلغ قوّته، وتكون بسن البلوغ كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ﴾ [النساء: ٦]

وابتلاء اليتامى يكون باختبارهم والتبصر في أخلاقهم وتصرفاتهم وذلك بأن يُدفع إليهم شيء يسير من مالهم فإن توسموا الخير فيهم وأحسنوا التصرف فليسلم الولي إليهم أموالهم ولا يستمر بالحجر عليهم.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ وحافظوا على كل عهد التزمتموه سواء جرى بينكم وبين ربكم، أو بينكم وبين غيركم من الناس. أما التزام العهد بين الإنسان وربه فهو القيام بكل ما أمر الله به والابتعاد عما نهى عنه. وأما العهد بين الناس فهو يشمل كل عقد من العقود التي توافقوا عليها كعقد البيع، وعقد الشراكة، وعقد الإيجارات، وعقد الزواج، وعقد الصلح بين الأمم وغير ذلك، فهي كلها عهود أو عقود يفرض الوفاء بها والقيام بمقتضاها. ثم بين الله مكانة العهد بقوله: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ أي إن الله سائل ناقض العهد يوم القيامة على سبيل التوبيخ واللوم: لِمَ نكثت عهدك وضيعته ولم توفِ به؟

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ واجعلوا الكيل وافياً عادلاً إذا كلتم لغيركم ولا تنقصوا شيئاً منه ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي استعملوا في وزن البضاعة المباعة الميزان السوي العدل الذي ليس فيه اعوجاج، ولا خداع، ولا غش ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أي إن إيفاء الكيل والوزن وإعطاء الناس حقوقهم خير لصاحبه ولمن يعامله، وأحسن عاقبة.

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي ولا تتبع ما لا علم لك به. بهذه الكلمات القليلة بيّن القرآن المنهج الذي يجب أن يسلكه الإنسان ليأمن من الخطأ ويسلك سبيل الرشاد وليجتنب الظنون والأوهام التي تؤدي به إلى منعطفات خطيرة لا يأتي منها إلا الضرر والخسران.

هذه القاعدة الكلية يندرج تحتها نهي المشركين عن اتباع المذاهب التي كانوا يعتقدونها في الإلّهيات والعقائد والعبادات بسبب تقليد آبائهم. هذه القاعدة بعدم اتباع ما لا علم لك به، فيها نهي عن شهادة الزور فلا تشهد أيها الإنسان إلاّ بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك.

هذه القاعدة فيها أيضاً نهي عن الكذب فلا تقل أيها الإنسان إنك سمعت وأنت لم تسمع أو إنك رأيت وأنت لم تر، أو إنك علمت وأنت لم تعلم ثم يوضح الله ما سبق بقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ أي أن كل عضو من أعضاء السمع والبصر والقلب صاحبه مسؤول عنه فلا يحل له استعمالها في غير ما أحله الله تعالى، فلا تصغ أيها الإنسان بسمعك إلى ما لا يحل من فحش القول والغيبة، أو إلى ما يلهيك عن عبادة ربك، ولا تمد بصرك بالنظر إلى ما حرمه الله من المناظر الفاحشة أو النظر إلى عورات الناس أو تنظر نظرة حسد إلى ما متع الله به غيرك من متاع الدنيا، أما قلبك فاحفظه من خاطرات السوء ومن وساوس الشيطان ومن الحقد والبغضاء.

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ أي ولا تمش في الأرض مختالاً متكبراً مسرفاً في فرحك ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً﴾ أي كيف تتكبر أيها الإنسان في الأرض وأنت لا تقدر أن تنقبها وتجعل فيها شقاً من شدة وطئك عليها بقدميك؟ وكيف تتعاظم وتتطاول على الناس ولن تبلغ مدى الجبال في الارتفاع، فأنت أضعف منها بكثير فلا يليق بك التكبر، وهذا تهكم بالمتكبر الذي يتطاول على الناس ﴿كُلُّ ذلكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ أي كل تلك الخصال التي نهى الله عنها مكروهة عند الله فاجتنبها ـ أيها الإنسان ـ لتحوز رضا ربك ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ﴾ أي ذلك الذي أمرناك به يا محمد وأمرنا به قومك من الأخلاق السامية هو مما أوحينا إليك من المواعظ والحكمة، وسميت حكمة لأنها كلام محكم يرشد إلى الحق والخير، ولأنها شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى في جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ ولا تجعل مع الله إلهاً غيره فيعاقبك الله بالإلقاء في جهنم لتعذب بنارها، تلومك نفسك والملائكة، مطروداً من رحمة الله.

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

شرح المفردات

أفأصفاكم ربكم بالبنين: هل خصكم ربكم فآثركم بصفوة الأولاد.

صرّفنا: بينّا المعاني بصور مختلفة.

ليذّكّروا: ليتعظوا.

نفوراً: إعراضاً.

لابتغوا: لطلبوا.

لا تفقهون: لا تفهمون.

تنزيه الله عن الولد، وتقديس كل ما في الكون له

وبعد أن أمر الله بتوحيده ونهى عن اتخاذ شريك له أتبع ذلك بالتوبيخ والذم للمشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله فخاطبهم الله بقوله:

﴿أَفَأَصْفَاكُم رَبُّكُم بِالبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ المَلائِكَةِ إِنَاثاً﴾ أي أخصكم ربكم بالبنين واختار لنفسه من الملائكة بنات له، كيف تزعمون ذلك وأنتم تكرهون البنات وبذلك تفضلون أنفسكم على الله باختصاصكم بالبنين دونه؟ مع أنه الله سبحانه ليس له أولاد سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً **﴿إِنَّكُم لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾** إنكم أيها المشركون لتقولون قولاً منكراً بالغاً في الإثم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرآنِ لِيَذَّكَّروا﴾ أي ولقد بينّا في هذا القرآن بأساليب متنوعة: الأحكام والحجج والوعد والوعيد والحق من الباطل ليتعظ الناس فيهتدوا

إلى الحق ﴿وَمَا يَزِيدُهُم إلاّ نفُوراً﴾ وما يزيدهم تذكيرنا لهم إلاّ ابتعاداً عن الحق.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلهةٌ كَمَا يقولون إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي العَرْشِ سَبيلاً﴾ أي قل يا محمد للمشركين: لو كان مع الله آلهة أخرى كما تزعمون لطلب هؤلاء الآلهة بكل جهدهم أن يسلكوا طريقاً إلى الله صاحب الملك ليشاركوه الأمر وينازعوه السلطة، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن لأن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله هي أصنام عاجزة لا تقدر على خير أو شر ولا تملك من أمر نفسها شيئاً لذا بطل تعدد الآلهة وثبتت وحدانية الله ﴿سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَى عَمَّا يقولونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ تنزه الله عن أن يكون له شريك في ملكه، وعلا علوًّا كبيراً عن الشريك وعما يفتري المشركون من الكذب على الله تعالى.

﴿تُسَبِّحُ لَـهُ السَّمٰواتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ والسماوات: جمع سماء، والسماء في اللغة تقال لكل ما ارتفع وعلا، وما يعلونا هو الكواكب والنجوم والمجرات. والسماوات السبع المراد بها التكثير والتضعيف كما جاء في لسان العرب لا من باب حصر العدد.

ومن الكتّاب من يقول: إن المراد بها الكواكب السيارة السبعة في المجموعة الشمسية غير الأرض[1].

فهذه السماوات السبع والأرض ومن فيهن من الإنس والجن والمخلوقات الحية والنبات والجماد كلها تنزه الله سبحانه من النقص وتبرئه من العيب وتدل على أنه الواحد المتصف بجميع صفات الكمال؛ فالإنسان المؤمن بخالقه يسبّح الله ويحمده ويعظمه ويبرئه من كل عيب عندما يتأمل أسرار الخلق وما فيها من الحكمة الربانية.

والكائنات الحية وغير الحية تسبّح الله بلسانها الخاص وبما ألهمها الله، فالطير يسبّح الله كما جاء في القرآن: ﴿ أَلَمْ تَـرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ

---

(١) هذا ما ذهب إليه الدكتور داود السعدي في كتابه (أسرار الكون في القرآن) وهذه الكواكب هي: عطارد ـ الزهرة ـ المريخ ـ المشتري ـ زحل ـ اورانوس ـ نبتون ـ أما كوكب بلوتو الذي اكتشف أخيراً فتقول أقوى النظريات إنه ليس كوكباً سياراً بل هو قمر هارب من نبتون.

صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١] والرعد يسبّح الله كما جاء في القرآن: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

والجبال كانت تسبّح الله مع نبي الله داود ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

والكون كله يسبّح الله كما جاء في تتمة الآية السابقة: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وإن: هنا نافية بمعنى ما، أي ما من شيء من الأشياء إلاّ ينزه الله ويعظمه مقروناً بحمده وشكره ولكن نحن لا نفهم ولا ندرك تسبيحهم. ولفظة «شيء» تشمل الرمال والصخور والأشجار والمعادن والمياه وغير ذلك من المخلوقات غير العاقلة.

ومما يثير العجب أن العلم قد اكتشف حركة دائبة في ذرات أيّ عنصر من عناصر الكون فقد ثبت علمياً أن مادة أي عنصر من عناصر الكون تتألف من ذرات وكل ذرة تتألف من عنصرين هما (النيوترون) و(البروتون) وهذان العنصران يطلق عليهما (نواة الذرة) يضاف إليهما عنصر ثالث هو (الالكترونات) حيث تدور حول النواة في سبع مدارات محددة تسمى مستويات الطاقة، ودورانها حول النواة من يسار إلى يمين أي ضد اتجاه دوران عقارب الساعة. وهذا الترتيب وما فيه من نظام يشبه النظام الشمسي حيث تدور الكواكب السيارة والأرض حول الشمس في الاتجاه ذاته أي من يسار إلى يمين عكس دوران عقارب الساعة، وكذلك المجاميع النجمية فهي في دوران أيضاً في الاتجاه ذاته حول محورها.

وهنا نتساءل هل هذه الحركة الدائبة في ذرات كل شيء هي تسبيح لله؟

ومن المدهش أن الطواف حول الكعبة في الحج أو العمرة أو في غيرهما يكون اتجاهه مثل اتجاه دوران الالكترونات أي عكس اتجاه دوران عقارب الساعة وعدد الطواف هو سبع مرات والطواف من أهم المظاهر لعبادة الخالق وتعظيمه وإجلاله.

ويختم الله هذه الآيات بقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ إنه سبحانه حليم لا يعجل العقوبة على خلقه الذين يخالفون أمره، غفور لمن تاب.

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

شرح المفردات

حجاباً مستوراً: أي حجاباً ساتراً عن الرؤية.

أكنة: جمع كنان وهو الغطاء.

أن يفقهوه: لئلا يفهموه.

وفي آذانهم وقراً: وفي آذانهم ثقلاً وصمماً مانعاً من سماعه.

ولّوا على ادبارهم نفوراً: انصرفوا على اعقابهم هاربين نافرين عن استماعه.

إذ هم نجوى: يتحدثون سراً.

رفاتاً: حطاماً وهو ما تكسر من كل شيء.

أو خلقاً مما يكبر في صدوركم: أو خلقاً مما تستبعدون قبوله للحياة.

فطركم: خلقكم.

فسينغضون إليك رؤوسهم: يحركونها تعجباً واستهزاء.

موقف المشركين من القرآن والبعث

ويتابع القرآن فيبين موقف المشركين من القرآن:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُون بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ أي وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالبعث بعد الموت ولا يقرون بالثواب والعقاب من الله جعلنا بينك وبينهم حجاباً معنوياً يحول بينهم وبين فهم القرآن وإدراك ما فيه من الهدى عقوبة لهم من الله على كفرهم ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهوهُ﴾ أي وجعلنا بمقتضى حكمتنا في الإضلال والهداية على قلوب هؤلاء المشركين أغطية تمنعهم عن فهم القرآن ﴿وفي آذانِهِم وَقْراً﴾ وجعلنا في آذانهم صمماً وثقلاً يمنعهم عن سماع القرآن سماع فهم وتدبّر.

هذا الحجاب ينطبق حالياً على الذين يعتنقون المذاهب المادية التي تنكر الآخرة والثواب والعقاب من الله فلا يريدون سماع القرآن وتقصي حقائقه ولا الاهتداء بهديه لأنهم آثروا الحياة الدنيا وشهواتها على الآخرة.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ في القُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي وإذا سمعك هؤلاء المشركون تقرأ من القرآن الكريم ما ينطق بتوحيد الله وذم الأصنام ﴿وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهم نُفُوراً﴾ هربوا نفوراً وانزعاجاً من سماع كلمة وحدانية الله لأنها تنفّرهم من أصنامهم وتنهاهم عن عبادتها. وهم مصممون على ضلالهم.

فعقيدة وحدانية الله كانت تهدد المشركين في مكانتهم الاجتماعية وفي امتيازاتهم فقد كان مشركو مكة سدنة البيت الحرام، وكان آنذاك قد انتشرت فيه عبادة الأصنام، وكانت سدانتهم لبيت الله الحرام تدر عليهم المال الوفير والزعامة، لذا كانوا ينفرون من كلمة وحدانية الله لأنها كانت تقضي على زعاماتهم الموروثة القائمة على عبادة الأوثان.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُون إِلَيْكَ﴾ والله أعلم بالهدف الذي يستمعون من أجله القرآن وهو الهزء والسخرية واللغو حين استماعهم إليك يا محمد وأنت تقرأ القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ والله أعلم بما يتشاورون في أمرك سراً ﴿إِذْ يَقُولُ

الظَّالِمُونَ إنْ تَـتَّبِعُون إلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ حين يقول هؤلاء الظالمون لبعضهم البعض: إن اتبعتم محمداً فأنتم لا تتبعون إلاّ رجلاً قد أصابه السحر فذهب عقله.

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ تأمل يا محمد واعتبر كيف مثّلوا لك الأمثال، وشبهوك مرة بشاعر، وتارة بساحر، وتارة بمجنون مع اعتقادهم في صميم قلبهم بخلاف ذلك ﴿فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعونَ سَبِيلاً﴾ فضلوا عن الحق فلا يجدون طريقاً إلى الهدى ولا يقدرون على الخروج من الكفر ولا النيل منك.

ويتابع القرآن فيذكر إنكار المشركين للبعث:

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ ولقد قالوا: أنُبعث أحياء بعد أن نصير عظاماً وحطاماً مفتتاً في قبورنا فنكون خلقاً جديداً ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أوْ حَدِيداً. أوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ في صُدُورِكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد لو صرتم حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر غيرهما مما تنكر عقولكم قبوله للحياة فالله قادر على أن يردكم إلى حال الحياة ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا﴾ أي سيقولون في دهشة واستنكار من يبعثنا أحياء بعد الموت ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُم أوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قل لهم يا محمد: يعيدكم أحياء الذي أوجدكم من العدم أول مرة على وجه الأرض، والقادر على خلق الإنسان ابتداء قادر على إعادته حيّاً ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إلَيْكَ رُؤوسَهُم﴾ أي يحركون رؤوسهم نحوك تعجباً واستهزاء بعد سماعهم قولك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكونَ قَرِيباً﴾ أي يقولون إنكاراً واستبعاداً متى يكون البعث؟ قل لهم يا محمد: لعله يكون قريباً فإن كل ما هو آت قريب وإن طال الزمن.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكم فتستجيبون بِحَمْدِهِ﴾ أي أن هذا البعث القريب يكون يوم يدعوكم ربكم بالخروج من قبوركم أحياء على لسان الملك إسرافيل فتجتمعون في أرض المحشر للحساب وأنتم تلهجون بحمد ربكم مدركين عظمته وقدرته ﴿وَتَظُنُّونَ إنْ لَبِثْتُم إلاَّ قَلِيلاً﴾ وتحسبون أنكم ما لبثتم في الأرض إلاّ زمناً قليلاً لهول ما ترون من أهوال يوم القيامة.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

شرح المفردات

يتزغ بينهم: يفسد بينهم ويثير الشر والخصام.

وكيلاً: موكولاً إليك أمرهم.

زبوراً: وهو كتاب داود المعروف بالمزامير.

من دونه: من غير الله.

ولا تحويلا: ولا تحويل الضر عنكم إلى غيركم.

الوسيلة: القربة إلى الله بما يرضيه من العبادة والأعمال الصالحة.

كان محذوراً: جديراً بأن يحذره كل إنسان.

توجيهات للمؤمنين

ثم يوصي الله المؤمنين بأن يقولوا الكلام الحسن في مخاطبة الناس:

﴿وَقُل لِعِبادي يَقُولوا الّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي قل يا محمد للمؤمنين بأن يقولوا الكلمة التي هي أحسن الكلام عند محاورتهم المشركين وغيرهم وذلك بأن يجتنبوا الشتم والسب والمخاشنة في الكلام. فالكلمة الطيبة لها منفذها إلى القلب في الاقناع، ولها تأثيرها السحري في توثيق الروابط بين الناس ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُم﴾ إن الشيطان يفسد بين الناس ويثير بينهم العدواة والبغضاء بسبب الغلظة بالكلام ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ للإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً﴾ إن الشيطان عدو لبني آدم وعداوته ظاهرة واضحة تمتد إلى القِدَم منذ أغوى أباهم آدم وأخرجه من الجنة.

ومن الكلام الحسن أن تقولوا للمشركين: ﴿رَبُّكُم أَعْلَمُ بِكُم﴾ أي ربكم أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن يستحق الضلالة ﴿إن يَشَأْ يَرْحَمْكُم﴾ إن يشأ ربكم يرحمكم بالتوفيق للإيمان فيتوب عليكم ﴿أو إن يَشَأْ يُعَذِّبْكُم﴾ أو إن يشأ يخذلكم ويصرفكم عن الإيمان فتموتوا على الكفر فيعذبكم الله يوم القيامة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمَ وَكِيلاً﴾ وما أرسلناك يا محمد كفيلاً لهم تتولى أمرهم وتجبرهم على الإسلام، وإنما أرسلناك مبشراً بثواب الله لمن أطاعه ومنذراً بعقاب الله لمن عصاه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن في السَّمٰوات وَالأَرْضِ﴾ وربك يا محمد أعلم بكل من في السماوات والأرض وأعلم بأحوال الناس وما يصلحهم فيختار منهم لنبوته من يشاء، وقد اختارك لرسالته فلا يصح أن يستكثروا عليك النبوة ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيّين عَلَى بَعْضٍ﴾ وكان تفضيل هذا البعض يعود لما يتحلون به من الفضائل النفسية والروحية والخلقية لا بكثرة الأموال والأتباع، فاتخذ الله ابراهيم خليلاً، وخص موسى بكلامه، وجعل عيسى كمثل آدم من غير أب، خلقه من تراب ثم قال له كن فكان، وأعطى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وأسرى بك ربك يا محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في برهة قصيرة من الليل وعرج بك إلى السماوات العلى وأعطاك القرآن المعجز للبشر بأسلوبه وهديه ﴿وآتينا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ وهو الكتاب المعروف عند أهل الكتاب بمزامير داود الذي يشتمل على أدعية وثناء على الله وتمجيد له. وقد يسأل سائل: لِمَ خص الله داود بالذكر باعطائه الزبور؟ والجواب أن داود مع كونه ملكاً عظيماً لم يذكر الله تعالى ما آتاه من المُلك بل ذكر ما آتاه من كتاب وهو الزبور للتنبيه على أن تفضيل بعض النبيين على بعض يعود إلى التفضيل بالعلم والدين والفضائل النفسية لا بالملك وسعة المال.

﴿قُلِ ادعُوا الَّذِين زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ﴾ أي قل يا محمد للذين يعبدون غير الله ويزعمون أنها آلهة كالملائكة[1] والمسيح وعزير، ادعوهم حين ينزل بكم الضر

(١) كان من قبائل العرب من يعبد الملائكة ويقولون هم بنات الله.

﴿فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُم وَلا تَحْوِيلا﴾ فلا يستطيعون إزالة المرض والفقر والقحط وغيرها عنكم وتحويل العسر إلى يسر ﴿أُولَئِكَ الَّذِين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى ربِّهم الوسِيلَةَ﴾ أي أولئك الذين يتخذونهم آلهة ويعبدونهم من غير الله هم أنفسهم يطلبون الدرجة والمنزلة عنده بالطاعة والعبادة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ ويحرصون على أن يكونوا أقرب إلى الله بالطاعة وازدياد الخير فكيف يزعمون أنهم آلهة ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ ويطمعون في رحمة الله ويرهبون عذابه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ إن عذاب ربك ينبغي أن يحذره كل إنسان ويخاف منه.

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

شرح المفردات

مسطوراً: مكتوباً.

بالآيات: بالمعجزات.

وآتينا ثمود الناقة مبصرة: وأعطينا قبيلة ثمود معجزة (الناقة) بينة واضحة.

فظلموا بها: فكفروا بها واعتدوا عليها.

أحاط بالناس: أي أحاط بالناس علماً وقدرة، فهم في قبضته.

الشجرة الملعونة: شجرة الزقوم.

طغياناً: تجاوزاً للحد في الكفر وتمرداً على رسول الله.

تحذير المشركين من عذاب الله

ثم ينتقل القرآن إلى تحذير المشركين من عذاب الله فيقول الله تعالى:

﴿وَإِن مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ وإن: نافية بمعنى ما، أي ما من قرية من قرى الكفار إلا سيهلكها الله بأن يبيد أهلها جميعاً قبل يوم القيامة ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً﴾ أو يعذب الله أهلها عذاباً شديداً دون الإهلاك ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ كان ذلك الإهلاك والتعذيب مكتوباً في اللوح المحفوظ[1] لتنفيذه في الأجل المحدد.

ثم يأتي الرد الإلهي على المشركين الذين طلبوا معجزات من النبي ﷺ، من ذلك أن يجعل لهم جبل الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال التي حولهم فيزرعوا مكانها، فقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُون﴾ أي وما أحجمنا عن أن نعطي هؤلاء الكفار المعجزات التي طلبوها، إلاّ صيانة لهم بأن يكون حالهم كحال من سبقهم من الأمم، حيث اقترحوا على أنبيائهم بعض المعجزات، فأعطيناهم إياها ولكنهم لم يؤمنوا، وكذبوا أنبياءهم فاستحقوا بكفرهم مع وجود المعجزات عذاب الاستئصال لهم، ولكننا لم نُرِد أن نعذب قوم محمد لأننا نعلم أن فيهم من سيؤمن، ويؤمن أولادهم لهذا لم نجبهم إلى طلبهم.

﴿وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ وممن سبقهم من الأمم التي أهلكها الله قوم ثمود، حيث طلبوا من نبيهم صالح أن يأتيهم بمعجزة تدل على أنه رسول الله، فأتاهم بالناقة معجزة واضحة أدركها الناس بأبصارهم، وقد خلقها الله على غير المألوف، وأمرهم على لسان نبيهم صالح بأن لا يمسوها بسوء ولا يذبحوها، فخالفوا أمر الله وذبحوها فحق عليهم عذاب الله وأبادهم جميعاً ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ

(١) اللوح المحفوظ: وهو المعبّر عنه أيضاً في القرآن بأم الكتاب ويوصف بأنه مستودع لما كان ويكون مما يعلمه الله وقدّر أن يعمله.

﴿إلاَّ تَخْوِيفاً﴾ وما يرسل الله المعجزات على أيدي رُسله إلاّ تخويفاً كي يترك الناس المعاصي، وإنذاراً للمكذبين برسله بسوء العاقبة.

﴿وَإِذْ قُلْنَـا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ واذكر يا محمد إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بالقوم الذين يكذبونك علماً وقدرة، فهم في قبضتنا فلا تبال بهم وامض في دعوتك وبلّغ ما أرسلت به فإننا نعصمك منهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا التي أَرَيْنَاكَ إلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إياها يا محمد ليلة الإسراء وما شاهدته فيها من العجائب التي ذكرتها لقومك إلاّ اختباراً لهم فمنهم من أنكر عليك قولك وارتد عن الإسلام ومنهم من صدّقك ﴿والشَّجَرَةَ المَلْعُونَـةَ في القُرْآنِ﴾ الشجرة معطوفة على الرؤيا، أي وما جعلنا رؤيتك الشجرة الملعونة إلاّ اختباراً لإيمان الناس أيضاً، والشجرة الملعونة المراد بها شجرة الزقوم التي ورد ذكرها في القرآن:

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ . إِنَّهَا شَجَـرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢ ـ ٦٤].

فعندما أُسري بالنبي ﷺ أخبر النبي قومه أنه أُسري به إلى البيت المقدس ثم عُرِجَ به إلى السماء، ورأى الجنة والنار، ورأى في النار شجرة الزقوم، فكذّب المشركون ذلك، وسخر البعض منه، وقالوا: كيف تنبت شجرة في النار، والنار تأكل الشجر؟ وقد جهلوا أن هذا ليس مستحيلاً على الله، فالذي خلق كل شيء في هذا الكون لا يصعب عليه أن يجعل شجرة بخصائص معينة لا تأكلها النيران، هذا مع العلم أن هناك بعض المواد في الطبيعة لا تؤثر فيها النيران ﴿وَنُخَوِّفُهُم فَمَا يَزِيدُهُم إلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ ونخوف المشركين بالعذاب أو الهلاك، فما يزيدهم تخويفنا إياهم إلا زيادة في الكفر واستمراراً في الضلال.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

شرح المفردات

اسجدوا لآدم: حيوه بالانحناء له تكريماً له لا سجود عبادة.

أرأيتك: أي أخبرني.

لأحتنكن ذريته: لأستولين عليهم بالإغواء.

موفوراً: كاملاً.

واستفزز: أي استخف وازعج.

وأجلب عليهم بخيلك ورَجِلِكَ: اجمع عليهم خيلك والمشاة من جندك.

غروراً: باطلاً وخداعاً.

سلطان: تسلط وقدرة على إغوائهم.

غواية إبليس لبني آدم

ولما كان الباعث على إعراض المشركين عن الإسلام الكبرياء والحسد للنبي ﷺ بيّن القرآن أن هاتين الصفتين من صفات إبليس الذي أعلن عزمه على غواية بني آدم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلملائكةِ اسْجُدوا لآدمَ فَسَجدوا إلاّ إبليسَ﴾ أي واذكر أيها النبي حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم لما له من الفضائل المستوجبة

لذلك فسجدوا كلهم إلاّ إبليس الذي كان من صنف الجن فاستكبر وخرج عن طاعة ربه ﴿قَالَ: ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ أي قال إبليس منكراً: هل أسجد لمن خلقته من طين؟ كما بيّن القرآن رفض إبليس للسجود لآدم في موضع آخر: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وتابع إبليس قوله: ﴿قال أَرَأَيْتَكَ هَذَا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي أخبرني عن هذا الذي فضّلته عليّ بأن أمرتني بالسجود له لِمَ كرمته عليَّ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ لئن: لام قسم، أقسم عدو الله إبليس وقال: لئن أبقيتني حياً يا رب إلى يوم القيامة ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلاّ قليلاً﴾ أي لأستولين على بني آدم بالإغواء والإضلال ولأستميلنهم إليّ إلاّ قليلاً منهم ﴿قَالَ اذْهَبْ﴾ إن قوله تعالى: اذهب ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء وإنما معناه امضِ لشأنك الذي اخترته ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُم فَإِنَّ جَهَنَّم جَزَاؤُكُم جَزَاءً مَوْفوراً﴾ فمن أطاعك من ذرية آدم على الضلالة فإن عذاب جهنم جزاؤك وجزاؤهم جزاء كاملاً لا ينقص منه شيء.

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ واستخف وأزعج من استطعت منهم بوسوستك ودعائك لهم إلى الشر والمعصية ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ واجمع عليهم فرسان جندك ومشاتهم، والمراد التسلط عليهم بكل ما يقدر عليه من أساليب الإغواء مستخدماً كل أتباعه ﴿وَشَارِكْهُم في الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ﴾ أي بتحريضهم على كسب الأموال بالربا والرشوة والاغتصاب والغش وإنفاقها في معصية الله، أما المشاركة في الأولاد فهي إنجاب الأولاد عن طريق الزنا، وعدم تنشئة الأولاد على الصلاح والتربية الفاضلة فينحرفون نحو الفواحش والمنكرات التي يزينها لهم الشيطان، أو تنشئتهم على الكفر والعصيان والضلال ﴿وَعِدْهُم وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلاّ غُروراً﴾ وقدم لهم الوعود الكاذبة كالوعد بشفاعة الأصنام والأولياء والقديسين ليظلوا في كفرهم وضلالهم، وقدم الوعد بالعفو والمغفرة من الله مع الاسترسال في المعاصي وعدم التوبة، وما يعد الشيطان أتباعه إلاّ وعداً باطلاً بتزيين الخطأ وإظهار أنه صواب.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إن عبادي المخلصين ليس لك يا إبليس قدرة على إغوائهم لأنهم في حفظي ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ وكفى بالله حافظاً من كيدك ونصيراً للمؤمنين الذين يكلون أمرهم إلى ربهم ويطيعونه، فهو الذي يدفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه. ومعنى ذلك أن الذين يعرضون عن عبادة ربهم وطاعته هم أقرب إلى إغواء الشيطان لهم واستيلائه على قلوبهم.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

شرح المفردات

يُزجي: يجري ويسوق برفق.

الضر: الشدة، وهنا خوف الغرق بتقاذف الأمواج.

أن يخسف بكم جانب البر: يغيّبكم تحت الثرى.

حاصباً: الحاصب، الريح المهلكة بالحصى أو غيره.

وكيلاً: حافظاً ونصيراً.

قاصفاً من الريح: ريحاً عاصفة مهلكة.

تبيعاً: نصيراً ومعيناً، أو مطالباً بالثأر.

فضل الله على الناس

ثم يبين الله فضله على الناس بتسيير السفن في البحر لمنافعهم:

﴿ربُّكُمُ الّذي يُزجِي لَكُمُ الفُلْكَ في البَحْرِ﴾ أي ربكم - أيها الناس - هو الذي يسيّر ويجري بقدرته السفن في البحر بفعل الرياح، وهذا يتمثّل بالسفن الشراعية قديماً، أما غيرها من السفن فتسير بفعل المحركات التي ألهم الله الإنسان لصنعها، والتي تعمل بما سخره الله للإنسان من طاقة كالنفط أو الفحم الحجري أو غير ذلك، فالله هو خالق ما تسير به السفن ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لتنالوا من رزقه سواء بالتجارة أو الصيد أو غير ذلك ﴿إنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحيماً﴾ وإنما يسّر الله للناس ذلك لفضله عليهم ورحمته بهم.

﴿وَإذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاَّ إيَّاهُ﴾ وإذا أصابتكم الشدة وتعرضتم للغرق في البحر ذهب عن أذهانكم كل ما تعبدون من غير الله ولجأتم إلى الله وحده فلم تجدوا مغيثاً سواه.

هذه هي الفطرة الإنسانية التي تلجأ إلى ربها عند الشدة وتتضرع إليه وحده عند الخطر الشديد وتنبذ كل الأوهام والأساطير والعقائد الباطلة الموروثة عن آبائها، يستوي في ذلك المؤمنون والملحدون لأنهم يدركون في تلك اللحظات الرهيبة التي يشرفون فيها على الغرق القوة الخفية التي أبدعت الكون وحاجتهم لها لتنقذهم مما هم فيه.

﴿فَلَمَّا نَجّاكُم إلى البَرِّ أعْرَضْتُم﴾ أي فلما أنجاكم ربكم من خطر الغرق وأوصلكم إلى شاطىء السلامة أعرضتم عن ذكره وعبادته، وجحدتم فضله عليكم ﴿وَكَانَ الإنْسَان كَفُوراً﴾ وكان الإنسان جحوداً لنعم الله عليه، وهذه هي الطبيعة البشرية لكثير من الناس.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾[1] أي أنجوتم من الغرق فأصبحتم في أمان فحملكم ذلك على الإعراض عن ربكم؟ فإن من قدر أن يهلككم في البحر بالغرق قادر أن يهلككم في البر بأن يخسف بكم الأرض ويغيبكم في أعماقها ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ أَوْ يُرْسِلَ عليكم ريحاً شديدة ترمي بالحصى الصغار يرجمكم بها. أو بمعنى: يرسل عليكم حجارة من السماء ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ ثم لا تجدوا لكم حافظاً ونصيراً يمنعكم من عذاب الله ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ بل أأمنتم أيها القوم أن يعيدكم إلى ركوب البحر مرة ثانية لدواعٍ وحاجات تلزمكم ذلك فتركبوا السفن ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ﴾ فيرسل عليكم ريحاً شديدة عاصفة لا تمر بشيء إلا حطمته ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي يغرقكم بسبب كفركم وإعراضكم عن عبادة ربكم ﴿ثُمَّ لا تجدوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ ثم لا تجدوا لكم حينئذ نصيراً أو منقذاً يتابعكم ليدفع الأخطار عنكم، أو متابعاً لنا يأخذ لكم بالثأر منا.

ثم يبين القرآن منزلة بني آدم التي خصهم الله بها:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بني آدَمَ﴾ هذه الآية لا نرى ما يوازيها شمولية في الاعتراف بحقوق الإنسان، فالله قد كرم بني آدم جميعاً دون استثناء، وفضلهم على كثير من مخلوقاته، لقد كرّمهم الله بحسن الصورة والعقل والمنطق، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ويقول سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

هذا التكريم الإلهي يجب أن يعيه الإنسان فيكرم أخاه الإنسان مهما كان لونه أو مذهبه أو بلده، فلا يهينه، ولا يذله، ولا يعتدي عليه، ولا يغتصب أمواله ولا ينتقص من كرامته. هذا وإن كل التشريعات التي سنتها المنظمات الدولية في العصر الحاضر تدور على كيفية المحافظة على كرامة الإنسان والمحافظة على حقوقه،

---

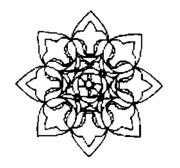
(١) أفأمنتم: الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم.

والإسلام له السبق في ذلك حيث اعترف بكرامة الإنسان مطلقاً ودعا إلى صيانة حقوقه.

﴿وَحَمَلْنَاهُم فِي البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ هنا وصف لمظهر من مظاهر التكريم لبني آدم حيث سخر الله لهم في البر والبحر ما يحملهم وينقلهم من بلد إلى بلد ومن مكان إلى آخر.

ففي زمن نزول القرآن كانت الدواب للنقل البري، والسفن الشراعية للنقل البحري، أما الآن فإننا نفهم هذا الحمل على شموليته بما ألهم الله الإنسان لاختراعه من أدوات النقل الأخرى كالطائرات والقاطرات والسيارات والبواخر الضخمة.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فهنا تصوير للمستوى الرفيع الذي عليه بنو آدم حيث رزقهم الله لذيذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به ﴿وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ لقد أجمل الله هذا الكثير من التفضيل ولم يبين أنواعه، فأفاد هذا التعميم أن بني آدم فضلهم الله على كثير من مخلوقاته بخصائص لم تتوفر لغيرهم من المخلوقات الحية، وسخر لهم ما في السماوات والأرض لمنافعهم، وفي هذا تكريم للنوع الإنساني وعلو منزلته في الأرض، وهذا مما يستوجب من الناس الشكر لخالقهم.



﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

شرح المفردات

بإمامهم: بمن كانوا يأتمون به أو بأنبيائهم أو بكتابهم الذي أُنزل عليهم.

ولا يظلمون فتيلاً: أي لا ينقصون من ثواب أعمالهم أدنى شيء.

ليفتنونك: ليوقعونك في الفتنة وليصرفونك عن دعوتك.

لتفتري علينا غيره: لتختلق وتتقول علينا غير القرآن.

خليلاً: صديقاً ومحباً.

ولولا أن ثبتناك: ولولا أن عصمناك وثبتناك على الحق.

تركن إليهم: تميل إليهم.

ضعف الحياة وضعف الممات: ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة.

ليستفزونك: ليزعجونك بمعاداتهم ومكرهم.

خلافك: بعدك.

سنّة: السنّة هي الطريقة والخطة المتبعة.

تحويلاً: تبديلاً وتغييراً.

أحوال الناس في الآخرة وتثبيت الله لرسوله في الدنيا

ثم ينتقل القرآن إلى بيان أحوال الناس في الآخرة وهم في موقف الحساب: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي واذكر أيها النبي يوم ندعو كل أناس يوم القيامة باسم إمامهم الذي ائتموا به واتبعوه من نبيّ مرسل إليهم، أو كتاب سماوي أُنزل عليهم، فيقال: يا أمة إبراهيم، ويا أمة موسى، ويا أمة عيسى، ويا أمة محمد، أو يقال: يا أهل التوراة، ويا أهل الإنجيل، ويا أهل القرآن. وقيل: ينادى بكتاب أعمالهم فيقال: يا أصحاب الخير، ويا أصحاب الشر، فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتاب أعمالهم بأيديهم اليمنى، ثم ينادي: يا أتباع فرعون ويا أتباع فلان وفلان من رؤساء الضلالة وأكابر الكفار فيأخذون كتب أعمالهم بأيديهم اليسرى تحقيراً لهم.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي فمن أعطي كتاب أعماله فأخذه بيمينه كان ذلك بشرى له بنعيم الآخرة ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ﴾ فهؤلاء يقرأون كتابهم مبتهجين فرحين بما فيه من حسنات ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ ولا ينقص من ثوابهم ولو بقدر الفتيل، والفتيل هو الخيط الذي في قلب نواة البلح، وهو مثل في نهاية القلة.

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ ومن كان في هذه الدنيا أعمى البصيرة عن حجج الله وبيناته ولا يهتدى إلى الحق والهدى ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ فهو في الآخرة أعمى لا يهتدي إلى ما ينجيه، وأضل طريقاً عن طريق السعادة، وإذا تاب في الآخرة فلن تقبل توبته، وقد كان عليه أن يتوب في الدنيا.

ثم يبين الله محاولة المشركين فتنة النبي ﷺ وإبعاده عن الطريق الذي رسمه الله له: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي وإن المشركين قاربوا بخداعهم لك يا محمد أن يوقعوك في الفتنة لصرفك عما أوحينا إليك من الأحكام.

يروى في سبب نزول الآية أن وفد قبيلة ثقيف أتوا النبي ﷺ فقالوا: متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يُهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، ومنها قول أكابر قريش للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء الفقراء والعبيد من مجلسك حتى نجلس معك ونسمع

منك ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ لتختلق علينا غير الذي أوحينا إليك ﴿وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَليلاً﴾ أي ولو اتبعت ما يريدون لاتخذوك صفياً وصاحباً لهم ﴿وَلَوْلا أن ثَبَّتْنَاكَ﴾ أي ولولا تثبيتنا إياك على الحق وعصمتنا لك﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إلَيْهِم شَيْئاً قَلِيلاً﴾ لقد قاربت أن تميل قليلاً إلى اتباع مرادهم لشدة احتيالهم عليك وخداعهم لك. وهذا صريح في أن النبي ﷺ لم يهمّ أبداً بإجابتهم إلى ما دعوه إليه مع قوة الداعي إليها.

وقد كان رسول الله معصوماً ولكنه تخويف لأمته لئلا يركن أحد من المؤمنين ويستجيب لإغراءات المشركين في ترك شيء من أحكام الله وشرائعه.

﴿إذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَياةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ﴾ أي لو فعلت ذلك من الميل والاطمئنان إليهم لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ أي لا تجد من ينصرك ويدفع عنك العذاب.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾أي ولقد قارب أهل مكة بإزعاجهم لك بعداوتهم ومكرهم ليخرجوك يا محمد من أرض مكة ﴿وَإِذاً لا يَلْبَثُون خِلافَكَ إلاَّ قَلِيلاً﴾ أي ولئن أخرجت من أرض مكة لا يلبثون بعد إخراجك منها وهم سالمين إلاّ زمناً يسيراً.

هذا وعد من الله بإهلاك هؤلاء الكافرين، وقد تحقق وعد الله فيهم، فإن النبي لما اشتد الأذى عليه من كفار مكة وحاولوا قتله أمره الله بالهجرة إلى المدينة المنورة، ثم لم تمض سنة ونصف بعد هجرته حتى التحم النبي ﷺ مع كفار مكة في معركة بدر وقتل منهم زهاء سبعين رجلاً.

أيّ برهان أوضح من ذلك مما يشهد أن القرآن وحي إلهي وأن محمداً رسول الله حقّ؟

ثم يقول سبحانه: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي هذه عادتنا وطريقتنا مع الذين يؤذون رسلنا ويخرجونهم من ديارهم بأن نهلكهم ﴿وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ ولا تجد لطريقة الله في إهلاك من يخرج الرسل من بينهم تبديلاً وتغييراً.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

شرح المفردات

لدلوك الشمس: أي من وقت زوال الشمس وانتقالها من وسط السماء إلى ناحية الغرب.

غسق الليل: ظلمة الليل.

قرآن الفجر: قراءته والمراد بها صلاة الفجر.

كان مشهوداً: تشهده الملائكة.

فتهجد: استيقظ ليلاً للصلاة.

نافلة: صلاة زائدة على الفريضة.

سلطاناً: حجة لها سلطة على العقل بقوتها.

جاء الحق وزهق الباطل: جاء الإسلام بالدعوة إلى وحدانية الله وزال الشرك وعبادة الأصنام.

زهوقاً: مضمحلاً باطلاً.

خساراً: خسارة وهلاكاً بسبب كفرهم.

دعوة إلى إقامة الصلاة

وبعد أن بيّن الله تعنت المشركين وعدم استجابتهم لدعوة النبي ﷺ أمره الله كما أمر قومه بإقامة الصلاة تثبيتاً للقلب، فقال سبحان:

﴿أقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ الليْلِ﴾ أي أدِّ الصلوات المفروضة كاملة مستوفية أركانها من وقت زوال الشمس في وسط السماء إلى سواد الليل

﴿وقُرْآنَ الفَجْرِ﴾ وأدِّ صلاة الفجر. وعبر عن صلاة الفجر بالقرآن لأنها يطلب فيها تطويل القراءة عن غيرها من الصلوات ﴿إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ إن صلاة الصبح تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار كما جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر»[١].

هذا وإن قراءة القرآن في الفجر لها خصوصية لا تتوفر لغيرها من الأوقات حيث تكون النفس أخذت قسطها من الراحة وابتعدت عن مشاغل الحياة فتقبل على الصلاة بخشوع ولذة روحية يوفرها سكون الليل وانتفاء الضجيج، وسحر الطبيعة.

هذه الآية السابقة جامعة للصلوات الخمس ومواقيتها، (فدلوك الشمس) يتناول صلاتي الظهر والعصر، و (غسق الليل) يتناول صلاتي المغرب والعشاء (وقرآن الفجر) هو صلاة الصبح.

فالإنسان في هذه الحياة الدنيا تعتريه الهموم والأحزان، لذا كانت الصلاة مخففة لأحزانه يستلهم منها الصبر والثبات واليقين بما تحتويه من ذكر الله وشكره وتعظيمه والاستعانة به وقراءة للقرآن، كما أنها في الوقت نفسه تكون رادعة عن الشرور والآثام لما يستشعره الإنسان من الرهبة والخشوع عند الوقوف في حضرة الله في الصلاة فترتدع نفسه عن كل ما يراودها من اقتراف الشرور والآثام.

﴿وَمِنَ اللَيْلِ فَتَهَجَّد بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ الخطاب هنا للنبي ﷺ، أي قم بعد نومك للصلاة بعض الليل، وهذا هو معنى التهجّد. أما النافلة فهي الزيادة، أي أن صلاة الليل فريضة عليك زائدة على الصلوات الخمس خصَّك الله بها يا محمد من بين أمتك حيث تكون صلاة الليل بالنسبة لهم مندوبة وتطوعاً. وقيل: إن صلاة الليل ليست من الفرائض في حق النبي ﷺ بل هي تطوّع لرفع درجاته في الآخرة، كما أنها

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

مظهر من مظاهر الشكر لله على نعمائه ﴿عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ لفظة عسى من الله تفيد التحقق، لأن عسى يفيد معناها اللغوي: الترجي في الأمر المحبوب والطمع، ومن أطمع إنساناً في شيء ثم حرمه منه كان عيباً في حقه، والله ذو الفضل العظيم على عباده، فهو أكرم وأجلّ من أن يُطمع أحداً في شيء ثم لا يعطيه إياه. والمعنى: تهجّد بالصلاة في الليل عبادة زائدة على الصلوات الخمس، رجاء أن يرفعك ربك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق، والمقام المحمود هو مقام الشفاعة من النبي ﷺ لأمته كما جاء في الحديث الصحيح عنه، وقيل المقام المحمود ينتظم به كل مقام يتضمن كرامة له.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ وقل يا محمد داعياً ربك: رب أدخلني فيما أمرتني به من الطاعات إدخالاً مرضياً منك لا رياء فيه ويوصف صاحبه بأنه صادق في قوله وفعله ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وأخرجني يا رب من كل ما نهيتني عنه مخرج صدق يستحق الخارج منه أن يقال له أنت صادق. وقيل: إن الله علمه أن يدعوه بأن يخرجه من دار المشركين دار الإيذاء والغدر، وأن يدخله موطناً فيه الطمأنينة والأمن فدعا ربه كما أمره فكان أن أخرجه من مكة وأدخله المدينة المنورة ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ السلطان: يأتي بمعنى الحجة والبرهان، كما يأتي بمعنى القهر والغلبة، والمعنى: واجعل لي يا رب حجة ثابتة وبرهاناً بيّناً أهدي به الناس، واجعل لي يا رب قوة تنصرني بها على من عاداني وقاتلني، وقد استجاب الله دعاء رسوله محمد ﷺ وقهر جميع أعدائه، وأظهر دينه على الأديان كلها وعصمه من أذى أعدائه وكيدهم.

﴿وَقُلْ جاءَ الحَقُّ﴾ وقل يا محمد جاء الحق وهو الإسلام المؤيد بمعجزة القرآن الكريم الداعي إلى الحق والهدى ﴿وَزَهَقَ البَاطِلُ﴾ أي ذهب وهلك الشرك المتمثل بعبادة الأصنام ﴿إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ إن الباطل كان مضمحلاً لا بقاء له مهما طال به الزمن. وقد روي أن النبي ﷺ لما دخل مكة فاتحاً لها كان حول البيت الحرام ثلاثمايـة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جَاءَ الحَقُّ

﴿وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ فما بقي منها صنم إلاّ خرّ لوجهه ثم أمر بها فكسرت.

القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين

ثم يبين الله تأثير القرآن على النفس الإنسانية وفضائله الجمة فيقول:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلمُؤمِنينَ﴾ فالقرآن شفاء لأمراض المجتمع من الحسد والبغضاء والنفاق والبغي والظلم، كما أنه شفاء لأمراض النفس. والقرآن أيضاً رحمة للمؤمنين لما يشتمل عليه من تشريعات وقوانين تقوم على اليسر والعدالة وتحقيق مصالح الناس وسلامتهم ﴿وَلاَ يَزيدُ الظَّالِمينَ إلاَّ خَسَاراً﴾ أي أن الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر لا ينتفعون به ولا يعونه، ولا يزيدهم سماع القرآن إلا بعداً عن الإيمان لتأصل الكفر في نفوسهم، وصدق الله إذ قال في وصف القرآن: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وقفة تأمل عند قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ فالقرآن شفاء للنفس لأنه يدعو إلى الإيمان بوحدانية الله والعمل الصالح، ويبين أن الحياة الدنيا فانية ومتاعها قليل، وأن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة التي لا تزول، هذا هو المنهج الإلهي لعلاج أمراض النفس وفي مقدمتها القلق وتوفير الطمأنينة للإنسان وإذا وعى الإنسان هذا المنهج فإن القلق لن يعرف الطريق إلى قلبه، فالمنهج القرآني يقتلع مشكلة القلق من قلب الإنسان بتعميق الصلة بينه وبين ربه، ففي ساعة اليأس يتذكر المؤمن أن هناك ملاذاً يلجأ إليه وأن ربه قادر على معونته وكشف الضر عنه فتطمئن نفسه وصدق الله حيث يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والقلق يشكل القاسم المشترك لكل الأمراض النفسية، وهو ينتج إما عن خوف من المستقبل أو توقع مصيبة ما، أو عن صراع داخل النفس سببه اعتبارات

شتى. والقلق له آثار مدمرة على صحة الإنسان فإذا اشتدّ قد يؤدي إلى أمراض القلب، أو قرحة المعدة، أو ارتفاع ضغط الدم والربو، ويعالج الطب الحديث القلق بوسائل عدة، إما بواسطة العقاقير المهدئة أو بالعلاج النفسي الذي يعتمد على تطبيق أسس ومناهج علم النفس، ولكن هذه الوسائل لا تنفع إلا في نطاق محدود وفي الغالب لا تؤتي ثمارها على النفس لأنها علاج لأعراض الحالة المرضية وليست علاجاً لأسبابها وجذورها.

أما العلاج القرآني لأمراض النفس فهو أقوى أثراً لأنه يعالج أسباب القلق ومنشأه. ولنعط أمثلة على ذلك:

من أهم أسباب القلق: الخوف من الفقر، والقرآن يخاطب الناس: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٦٠] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨] فعلى المؤمن أن يتخذ من الوسائل والعمل ما يقيه الفقر والجوع ثم يترك الأمر بيد الله الذي سيوفر له أسباب الرزق.

ومن دواعي القلق: الخوف من مصائب الحياة والجزع عند حلولها والقرآن يوضح الحقيقة في ذلك بقوله: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١] ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١] فإذا وقعت المصيبة فهي مقدّرة من الله. وإذا كان لا بد من وقوعها فعلينا الاستسلام لإرادة الله والتحلي بالصبر واحتساب الأجر من الله.

ومن أسباب القلق: الشعور البالغ بعقدة الذنب والقرآن يبين المخرج من ذلك بقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا[١] عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا[٢] مِن

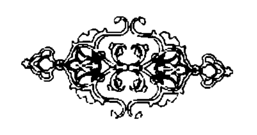
(١) أسرفوا: تجاوزوا الحد في المعاصي.
(٢) لا تقنطوا: لا تيأسوا.

رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. ويقول الله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

ومن أسباب القلق: ما يصادفه الإنسان من خيبة أمل أو إحباط في عمله، والقرآن يعالج هذه الخيبة بقوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن أسباب القلق: استحكام اليأس في النفس بسبب ما تصادفه من عقبات وفشل ذريع والقرآن يجيب على تلك الحالة المرضية ويفتح باب الأمل على مصراعيه بقوله: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ[1] إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [سورة الشرح: ٦].

هذا بعض ما يحتويه القرآن من علاج لبعض أمراض النفس اقتصرنا عليه خوفاً من التطويل[2].



(١) روح الله: رحمته وفرجه.
(٢) رجعنا في هذا البحث إلى كتاب (القلق وكيف تتخلص منه) تأليف: د. زهير احمد السباعي، و د. شيخ إدريس عبد الرحيم.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

شرح المفردات

أعرض: ولّى ومال عن ذكر الله وشكره.

نأى بجانبه: نأى: بعد، والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره استكباراً.

يعمل على شاكلته: يعمل على مذهبه وطريقته التي تشابه حاله في الهدى أو الضلالة.

لنذهبن بالذي أوحينا اليك: لنمحون ما أنزلنا عليك من القرآن من الصدور والمصاحف.

وكيلا: ناصراً ومعيناً.

طبيعة الإنسان في الخير أو الشر

ويتنقل القرآن إلى بيان طبيعة الإنسان عند النعمة وعند الشر فيقول سبحانه:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي وإذا أنعم الله على الإنسان بالمال والصحة ونال ما يتمنى أعرض عن ذكر الله وطاعته، وبَعُدَ عن عبادته تكبراً أو أعرض عن الناس وبعُد عنهم تكبراً ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً﴾ وإذا أصابه الشر كالمرض والفقر أو نزلت به كارثة ما، كان شديد اليأس من الفرج الذي وعد الله به عباده عند الضيق. وكلمة (يئوساً) بصيغة المبالغة تدل على لزوم اليأس وإيغاله في النفس، وأن كلمة (مسه) تفيد أن الإصابة بالشر ولو خفيفة تجعل النفس يائسة.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ قل يا محمد لكفار قريش قطعاً لإثارة الجدال: كل واحد يعمل على طريقته ومذهبه وأخلاقه التي ألفها في الهدى أو الضلال، فإذا كانت نفسه خيّرة طاهرة صدرت عنها أفعال فاضلة، وإذا كانت نفسه خبيثة سيئة

صدرت عنها أفعال خسيسة شريرة ﴿فَرَبُّكُم أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ فربكم الذي خلقكم هو أعلم بمن هو أرشد طريقاً إلى الهدى والحق.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ أي ويسألونك يا محمد عن حقيقة الروح الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره، وكيف يكون امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به. نزلت هذه الآية حينما قالت قريش لليهود اقترحوا علينا اسئلة معجزة نمتحن بها نبوة هذا الرجل (محمد)، فقالوا لهم: سلوه عن الروح، فأجابهم النبي ﷺ بما أوحى الله إليه ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ قل هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى استأثره الله به في علمه، فهو من الأسرار الخفية التي تعجز عن إدراكها عقول البشر ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾ وما أعطيتم أيها الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً في جنب علم الله. وما المكتشفات العلمية التي تطالعنا بها الأنباء فترة بعد فترة من الزمن إلا دليل على أن علم الإنسان قاصر عن الإحاطة بكل أسرار هذا الكون.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فالله يقول: ولئن شئنا لمحونا القرآن الذي أوحيناه إليك يا محمد من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً ﴿ثُمَّ لا تجدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكيلاً﴾ أي لا تجد لك من يتوكل علينا في رد شيء من القرآن بعد أن ذهبنا به ﴿إلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ لكنه تعالى لم يشأ ذلك تفضلاً منه عليك بإبقائه في صدرك وصدور المؤمنين ومصاحفهم رحمة بعباده ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ وذلك بأن اصطفاك وجعلك رسولاً إلى خلقه، وأنزل عليك القرآن وتكفل بحفظه وبقائه، وأعطاك المقام المحمود وهو الشفاعة يوم القيامة، وختم النبيين بك.

وإن الفضل الأكبر على رسول الله محمد هو إنزال القرآن عليه وتبليغه للناس بواسطته وتعليمه لهم، وكل من يقوم بتعلم القرآن والعمل به وتعليمه للناس فقد حاز على جانب من هذا الفضل الرباني وانطبق عليه قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣]، فالفوائد المستقاة من القرآن ليس لها حد فهو السبيل إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وصدق رسول الله ﷺ حين قال مخاطباً قومه «إن أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه» (رواه البخاري).

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ ﴾

شرح المفردات

ظهيراً: معيناً ومساعداً.

صرّفنا: بيّنّا أو كررنا بأساليب مختلفه.

فأبى: رفض.

كفوراً: جحوداً للحق.

القرآن يتحدى الناس جميعاً

ثم يبين الله أن القرآن الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾.

أي قل يا محمد للكافرين الذين لا يقرون بنبوّتك متحدياً لهم: لو اجتمع البشر جميعاً واختاروا صفوة من كتّابهم ومفكريهم وعلمائهم وفلاسفتهم وشعرائهم وانكبوا على تأليف كتاب مثل هذا القرآن ـ تأمل كيف قال: بمثل، ولم يقل بأحسن وهذا من باب التحدي البالغ وبيان مدى عجزهم أي لو اجتمع هؤلاء واشترك معهم في تأليف هذا الكتاب عالم الجن، وذكر الجن هو من باب الافتراض، لأن الجن لا يُرون ولكن من المعروف عنهم أنهم يأتون بالأعمال الخارقة كما كان يسخّرهم في ذلك نبي الله سليمان. أي لو اجتمع البشر جميعاً والجن معهم وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله.

لقد مضى على نزول هذه الآية خمسة عشر قرناً حين تلاها محمد ﷺ على أسماع العرب ثم تلاها الملايين من بعده إلى الآن، ولم نسمع أن شخصاً ما أو جماعة مهما علت مقدرتهم في البلاغة وعلم الشرائع قد استطاعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

وليست هذه الآية هي الوحيدة التي تحمل طابع التحدي للبشر فقد جاء في القرآن أيضاً: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

تأمل قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ هذا الجزم القاطع بأنهم لن يأتوا بسورة من مثله وهو ما تحقق إلى الآن هو دليل على أن القرآن وحي إلهي.

وجاء في سورة هود ردٌّ على الكفار الذين ادعوا أن محمداً افترى على الله كذباً حين قال إن القرآن مُنزل عليه من الله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[هود: ١٣ ـ ١٤].

لقد كان التحدي للكفار بأن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن وكان عجزهم عن ذلك برهاناً قاطعاً يثبت أن القرآن منزّل من عند الله وأنه سبحانه لا إلّه غيره.

فالقرآن هو المعجزة الأولى الأساسية لمحمد ﷺ وهو دليله القوي على أنه رسول الله وأن القرآن وحي من عند الله. والمعجزة في حد ذاتها إما حسية أو عقلية، والمعجزة الحسية وقتية يتأثر بها من شاهدها كالمعجزات التي جاءت على يد رسل الله السابقين ولكن بعد وفاتهم تعد هذه المعجزات من جملة الأخبار ويضعف تأثيرها على الشعوب التي تأتي بعدهم، أما معجزة محمد فهي عقلية أبدية تتميز

بالخلود وتتمثل في القرآن الكريم الذي يقدم في كل وقت وفي كل عصر البرهان الواضح الجلي على صدق نبوة محمد ﷺ.

وإن عظمة القرآن وإعجازه يتمثلان في بلاغته وفصاحته وأسلوبه المخالف لأساليب العرب في شعرها ونثرها حيث يرتقي إلى أعلى درجات البيان من حيث لفظه، ومن حيث معانيه ومن حيث الصور البيانية التي تحويها ألفاظه وعباراته. فلو كان القرآن من تأليف محمد كما يدعي الذين ينكرون نبوته لجاء القرآن على نمط من عاصر النبي من الشعراء والبلغاء وقلدهم في كلامهم المعهود مع العلم أن كل من سمعه من العرب صدمته الدهشة من وقع كلام القرآن وبهرتهم بلاغته ومعانيه وهم فرسان البلاغة والبيان يستوى في ذلك المؤمنون والكافرون، فهذا عمر بن الخطاب يقول: فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام، وهذا الوليد بن المغيرة أحد ألدّ أعداء الإسلام يقول مرة: لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه.

وإن عظمة القرآن تظهر بما اشتمل عليه من العلوم الدينية وأصول العقائد وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسي والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان وبذلك يفضل كل ما سبقه من الكتب السماوية ومن الشرائع الوضعية ومن الآداب الفلسفية.

ثم بيّن الله سبحانه أن الكفار مع عجزهم عن معارضة القرآن والإتيان بمثله استمروا على كفرهم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد بيّنا وكررنا في هذا القرآن القول فيه بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والحجج والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي، وقصص الأولين ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ فأبى أكثر أهل مكة إلا جحوداً للحق، وإنكاراً لكون القرآن وحياً من الله.

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

شرح المفردات

تفجر: تشق له طريقاً.

ينبوعاً: عيناً لا ينضب ماؤها.

جنه: بستان.

كسفاً: قطعاً.

قبيلا: مقابلة ومعاينة.

من زخرف: الزخرف، هو الذهب والزينة.

ترقى: تصعد.

المشركون يطلبون معجزات من رسول الله

ولما تبين عجز المشركين عن الإتيان بمثل القرآن وأنهم غُلبوا على أمرهم أخذوا يقترحون على النبي ﷺ الإتيان بمعجزات أخرى غير القرآن إمعاناً في إنكار نبوته وتحدياً له:

﴿وَقَالوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ وقال المشركون: لن نصدقك يا محمد بأنك نبي حتى تخرج لنا من أرضنا هذه عيناً من الماء تتدفق باستمرار ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ أو يكون لك بستان يحتوي على أشجار النخيل وكروم العنب ﴿فَتُفَجِّرَ الأنهارَ خِلالَها تَفْجِيراً﴾ فتجري مياه الأنهار من خلال أشجار هذا البستان بتدفق وغزارة ﴿أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ أو تسقط السماء علينا قطعاً قطعاً كما زعمت أن ربك يفعل ذلك إن شاء ﴿أو تَأتِيَ بِاللهِ والمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾، أو تأتي بالله والملائكة نقابلهم معاينة ومواجهة ليشهدوا بصحة ما تدعيه ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ﴾ أو يكون لك يا محمد بيت من ذهب ﴿أو تَرْقَى في السَّمَاءِ﴾ أو تصعد في سلّم إلى السماء ﴿وَلَنْ نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتَاباً نقرؤه﴾ وعلى فرض أنك صعدت في السماء فلن نؤمن لك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه يصدقك ويدل على نبوتك ﴿قُلْ سُبْحَان رَبِّي﴾ أي قل يا محمد تعجباً من فرط كفرهم وعنادهم واسترسالهم في الطلبات: تنزيهاً لله عن أن يعجز عن فعل شيء ﴿هَلْ كُنْتُ إلاّ بَشَراً رَسُولاً﴾ هل أنا إلا واحد من البشر، ورسول من رسل الله؟ وكان رسل الله لا يأتون قومهم بالمعجزات إلاّ بما يخصهم الله به ويظهره على أيديهم، ولم يكن أمر المعجزات موكولاً إليهم إنما هي من الله تعالى فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور وهي ليست بمقدوري؟

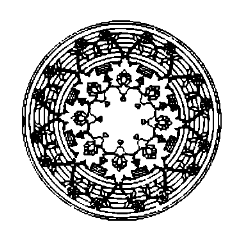
وبعد أن بين الله تعنّت المشركين واقتراحاتهم في طلب المعجزات بيَّن الله بعد ذلك بعض شبهاتهم على نبوة محمد ﷺ.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى﴾ وما منع المشركين من أهل مكة أن يصدقوا بأن محمداً رسول الله إذ جاءهم بالوحي من الله وهو القرآن المشتمل على الهدى ﴿إلاّ أَنْ قَالُوا: أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ أي كان السبب في عدم إيمانهم هو استبعادهم أن يكون رسول الله إليهم بشراً بدلاً من أن يكون من الملائكة.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ في الأَرْضِ مَلائَكةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو وجد وثبت أن في الأرض ملائكة بدل من فيها من البشر، وهؤلاء

الملائكة يمشون على الأقدام كما يمشي البشر مطمئنين مستقرين ساكنين بها. والمراد بكونهم ماشين على الأقدام أي أنهم غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها وسمعوا منها ما يجب معرفته ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ أي لو كان سكان الأرض ملائكة لأرسل الله إليهم من السماء رسولاً من عنده من جنس الملائكة، وهذا إعلام من الله بأن رسل الله إلى خلقه ينبغي أن يكونوا من جنس المرسل إليهم، فلما كان سكان الأرض من البشر فقد أرسل الله إليهم رسلاً من جنسهم، إذ لو أرسل الله إليهم رسلاً من جنس الملائكة فإنهم لا يرونهم ولا يستطيعون مخاطبتهم ولا الأخذ عنهم.

﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُم﴾ قل لهم يا محمد: كفى بالله وحده العالم المطلع على أني رسول الله إليكم وأنكم كذبتم ما أوحاه الله إليَّ ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ إن الله بعباده ذو خبرة وعلم بأمورهم بصير بما يفعلون لا يخفى عليه شيء من أمورهم وهو مجازيهم على أفعالهم.



﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

شرح المفردات

أولياء: نصراء.

نحشرهم: نجمعهم.

عمياً: جمع أعمى وهو الذي لا يبصر.

بكماً: جمع أبكم وهو الذي لا ينطق.

صماً: جمع اصمّ وهو الذي لا يسمع.

كلما خبت: كلما سكن لهيبها.

سعيراً: لهباً وتوقداً.

رفاتاً: حطاماً بالية.

لمبعوثون: لراجعون إلى الحياة يوم القيامة.

أجلاً: وقتاً للبعث.

قتوراً: مبالغاً في البخل.

مصير الكافرين في الآخرة

وبعد أن أجاب القرآن على شبهات المنكرين لنبوة محمد بيّن حُكْمَ الله في خلقه: ﴿وَمَنْ يَـهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ﴾ ومن يوفقه الله للإيمان لطيب سريرته ورجوعه إلى الله بالتوبة فهو المهتدي المصيب للحق ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَولِيَاءَ مِنْ

دُونِهِ﴾ ومن يضللهم الله ويخذلهم عن إصابة الحق بسبب إعراضهم عن الهدى فلن تجد لهم من ينصرهم وينقذهم من عقابه والله سبحانه يضل الظالمين الخارجين عن طاعته ﴿وَنَحْشُرُهُم يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي ويجمع الله الكفار يوم القيامة عندما يقومون من قبورهم مسحوبين على وجوههم إلى موقف الحساب ثم إلى جهنم كما جاء في القرآن ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾[١] [القمر: ٤٨] وهم في حالتهم هذه ﴿عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾ أي لا يبصرون ما يقر أعينهم، ولا ينطقون بما يقبل منهم الاعتذار، ولا يسمعون شيئاً يسرهم ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مستقرهم ومسكنهم هو جهنم ليعذبوا بنارها ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهم سَعِيراً﴾ كلما سكن لهبها وضعف، زادها الله تلهباً واشتعالاً.

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُم كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ ذلك الجزاء الذي وصفناه بسبب أنهم جحدوا أدلتنا وحججنا الدالة على صدق رسلنا ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ وبقولهم إذا دعوا إلى الإيمان بالآخرة، وثواب الله وعقابه فيها، إما إلى الجنة وإما إلى النار: هل إذا كنا عظاماً نخرة وأصبحت أجسادنا حطاماً بالية ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ أي أنبعث بعد ذلك خلقاً جديداً آخر تدب الحياة فيه؟ قالوا ذلك استنكاراً واستعظاماً لذلك.

وهنا يأتي الرد الإلهي عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّ الله الذي خَلَقَ السَّمٰوات والأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي أغفلوا ولم يعلموا أن الله الذي خلق السماوات والأرض من العدم مع عظمهما وعلى غير مثال سابق، قادر على أن يبعثهم ويعيد خلقهم كما بدأهم أول مرة ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيه﴾ وجعل الله لبعث الناس أحياء بعد مماتهم وقتاً معيناً وهو يوم القيامة الذي لا شك في وقوعه ﴿فَأَبَى الظَّالِمُون إلاَّ كُفُوراً﴾ أي فامتنع الذين ظلموا أنفسهم بالكفر عن الإيمان بالبعث جحوداً وعناداً منهم واستمراراً بالكفر.

---

(١) سقر: جهنم.

وبعد أن بين القرآن إنكار المشركين للبعث جاءت الآية التالية تبين مدى بخلهم وحرصهم على المال: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُم تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو كنتم تملكون خزائن رزق الله وسائر نعمه التي أفاضها على خلقه ﴿إذاً لأَمْسَكْتُم خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ﴾ إذاً لبخلتم وأمسكتم عن الإنفاق منها على عباد الله، فلم تعطوا أحداً شيئاً مخافة نفادها مع أنها عند الله لا تنفد ولا تفرغ أبداً ﴿وَكَانَ الإنسَانُ قتوراً﴾ وكان الإنسان شديد البخل والحرص على المال.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

شرح المفردات

تسع آيات بينات: تسع معجزات واضحات الدلالة على نبوته.

بصائر: جمع بصيرة وهي الحجة التي تبصِّر بالحق وتهدي إليه.

مثبوراً: مصروفاً عن الخير، مطبوعاً على الشر. أو بمعنى: هالكاً.

فأراد أن يستفزهم: فأراد أن يزعجهم ليخرجهم من الأرض بالقتل والاستئصال.

لفيفاً: مجتمعين مختلطين.

معجزات موسى وهلاك فرعون

وبعد أن طلب المشركون معجزات من محمد ﷺ بيّن الله في الآيات التالية أنه أعطى موسى تسع معجزات، ومع ذلك لم يؤمن فرعون وقومه وظلوا على كفرهم:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي ولقد أعطى الله موسى تسع معجزات واضحات تشهد على صدقه بأنه رسول الله، وهذه المعجزات هي:

١ ـ عصاه التي حولها الله إلى ثعبان وابتلعت حبال السحرة وعصيهم.

٢ ـ يده التي كان يضعها تحت إبطه فتصبح بيضاء متلألئة تشع كشعاع الشمس.

٣ ـ الجراد الذي قضى على الزروع والثمار.

٤ ـ القُمَّل وهو نوع من القُراد، كان يخالط طعامهم وملابسهم واجسامهم، وقيل هو القمل المعروف.

٥ ـ الضفادع التي ملأت بيوتهم وامتدت إلى طعامهم.

٦ ـ الدم، فصارت مياههم دماً أو اصيبوا بالرعاف.

٧ ـ السنون، والمراد بها سنوات القحط والجدب بانقطاع الأمطار وانخفاض ماء النيل.

٨ ـ نقص الثمرات بكثرة العاهات والآفات.

٩ ـ الطوفان، وهو فيضان الماء الذي غشى منازلهم ومزارعهم.

هذه الآفات كان يرسلها الله على آل فرعون متتابعة ولكنهم بالرغم من ذلك لم يؤمنوا وظلوا على كفرهم وضلالهم.

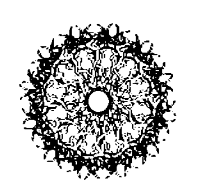
وهناك معجزات أخرى أَيَّد الله بها موسى كانفلاق البحر، ونبع الماء من الحجر، ورفع الجبل فوق بني اسرائيل.

﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ فاسأل يا محمد بني اسرائيل عن تلك المعجزات فإنهم يعلمونها بما لديهم من التوراة لتزداد يقيناً وطمأنينة ويظهر للمشركين صدقك حين جاء موسى إلى فرعون وقومه مبلغاً لهم رسالة الله، مؤيداً بتلك المعجزات ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا موسى مَسْحُوراً﴾ أي إني لأظنك يا موسى أن الناس سحروك فأصبحت مختل العقل.

وهنا يردّ موسى على فرعون بقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إلاَّ رَبُّ السَّمٰوات والأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ أي لقد علمت يا فرعون أن الذي أنزل هذه المعجزات هو رب السماوات والأرض، وهذه المعجزات تبصرك صدقي وأني رسول من عند الله. ثم أضاف موسى قائلاً ﴿وَإِنِي لأَظُنُّكَ يَا فِرعونُ مَثْبُوراً﴾ المراد من الظن هنا العلم، وقد عبّر به موسى عنه تلطفاً مع فرعون، أي وإني لأعلم يا فرعون أنك هالك، أو مصروف عن الخير إلى الشر بسوء فعلك وطغيانك.

﴿فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُم مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جمعياً﴾ فأراد فرعون أن يزعج موسى وقومه من أرض مصر التي هم فيها بالقتل والاستئصال فأغرق الله فرعون وجنده جميعاً في البحر ونَجَّى الله موسى ومن آمن معه.

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي وقلنا من بعد إغراق فرعون ـ على لسان موسى ـ لبني اسرائيل ﴿اَسْكُنوا الأَرْضَ﴾ يعني أرض مصر والشام ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ فإذا جاء يوم القيامة الذي وعد الله الناس به ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ واللفيف الجمع الكثير من قبائل شتى، أي جئنا بكم أيها الناس من بعد بعثكم من قبوركم أحياء إلى موقف القيامة مجتمعين، فيكم المؤمن والكافر، ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم.



﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾

شرح المفردات

فرقناه: انزلناه مفرقاً أو بيناه وفصلناه.

على مكث: على تؤدة وتأنٍّ.

لا تجهر بصلاتك: لا ترفع صوتك أثناء صلاتك.

ولا تخافت بها: ولا تخفض صوتك في الصلاة فلا يسمعك من خلفك في الصلاة.

وابتغ بين ذلك سبيلاً: واقصد طريقاً وسطا بين الجهر وخفض الصوت.

القرآن هو الحق المبين

ثم يبين الله أن القرآن الذي أنزله على رسوله محمد هو الحق الذي لا يأتيه الباطل:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق المقتضي لإنزاله ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ والتكرار هنا للتأكيد، وقيل المراد بالحق هنا أي بمحمد نزل عليه، أو بمعنى: وبالحق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل. فالحق هو الأمر الثابت الذي لا يتبدل ولا يزول، كما أن الباطل هو الزائل الذاهب. فهذا القرآن مشتمل على أشياء لا تزول لأنه مشتمل على الدلائل على وحدانية الله وصفات جلاله وتقرير نبوة الأنبياء وإثبات البعث، ومشتمل على شريعة كاملة لا يتطرق إليها النقض

والتحريف، كما أنه مشتمل على العدل والإنصاف والأخلاق الفاضلة، إضافة إلى النهي عن الظلم والفحشاء والمنكر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وما أرسل الله رسوله محمداً إلى الناس إلا مبشراً من أطاعه بنعيم الجنة في الآخرة، ومحذراً من عصاه وخالف أمره بعذاب النار في جهنم.

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ﴾ أي فرقنا فيه بين الحق والباطل، أو أنزلناه مفرقاً آية بعد آية وسورة بعد سورة في مدة ثلاث وعشرين سنة ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ لتقرأه يا محمد على الناس على مهل وتؤدة وتثبّت فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ ونزّلناه مفرّقاً حسب المصالح والأحوال، والوقائع والمناسبات التي تقتضي نزوله.

﴿قُلْ آمنوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾ قل يا محمد للكافرين: سيّان إيمانكم بالقرآن وعدم إيمانكم به، فإن إيمانكم بأن القرآن وحي إلّهي لا يزيده كمالاً وامتناعكم عن الإيمان به لا يورثه نقصاً ﴿إِنَّ الَّذِين أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منكم وهم علماء أهل الكتاب الذين قرأوا الكتب السماوية السابقة قبل إنزال القرآن ورأوا فيها نعتك يا محمد، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل كعبد الله بن سلام وغيره ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِم يَخِرُّون لِلأَذْقَان سُجَّداً﴾ إذا قرىء عليهم القرآن يقعون على وجوههم إلى الأرض ساجدين لله تعظيماً لأمره وشكراً له لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب الدينية السابقة ببعثة محمد ﷺ رسولاً من الله إلى الناس كافة. والتعبير عن سجودهم على وجوههم بالأذقان للإيذان بكمال تذللهم وخضوعهم لله وشكره على إنزال هذا القرآن العظيم.

﴿وَيَقُولُون سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ ويقولون في سجودهم تنزه ربنا أن يخلف وعده، إن وعد ربنا كائن لا محالة، وهذا الوعد هو إنزال القرآن وبعثة محمد ﷺ نبياً ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيزيدهُم خُشُوعاً﴾ أي يقعون على وجوههم ساجدين لله وهم يبكون، ويزيدهم القرآن تذللاً وخضوعاً لله، كما يزيدهم علماً ويقيناً.

وقد كرر القرآن السجود لاختلاف السبب فالسجود الأول كان لتعظيم أمر الله، والسجود الثاني وهم يكون بسبب ما أثر فيهم من مواعظ القرآن ـ وهذا السجود يحصل للمؤمنين على مر الأيام والسنين لمن أوتي العلم بدقائق اللغة العربية، وقرأ الكتب الدينية السابقة فإنه إذا قرأ القرآن وادرك بلاغته واستوعب معانيه فإنه يسجد لله معظماً له حامداً على نعمة إنزاله القرآن باكياً من خشية الله، لما يجد فيه من الحقائق المطلقة مما لم يوجد في أي كتاب ديني قبله.

ويتابع القرآن فيزيل بعض الشبهات التي أثارها المشركون حول أسماء الله، فقد رُوي عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان بمكة ذات يوم فدعا الله فقال في دعائه: يا ألله يا رحمن فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابىء ينهانا أن ندعو إلّهين وهو يدعو إلّهين!! فنزلت الآية: ﴿قُلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحمٰنَ أيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسماءُ الْحُسْنَى﴾ والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن هذين الاسمين الكريمين: الله والرحمن، هما اسمان لمسمًّى واحد هو الإله المعبود بالحق جل جلاله، فسمّوه أو ادعوه أو اذكروه بكلا هذين الاسمين أو بأحدهما وأيّا من هذين الاسمين سميتم فهو تسمية حسنة. والحسنى تأنيث الأحسن، وكون أسماء الله حسنى لدلالتها على صفات التقديس والجلال والتعظيم ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتك﴾ أي ولا ترفع صوتك بتلاوة القرآن حين تصلي بحيث يسمع المشركون فإن ذلك يحملهم على سبّ القرآن ومن أنزله ﴿ولا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ولا تخفض صوتك بالقراءة فتقرأها سرّاً بحيث لا يسمع من يصلي خلفك من المؤمنين ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبيلاً﴾ ولتكن قراءتك للقرآن وسطاً بين الجهر والإخفاء.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لله الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ وقل يا محمد: ثناء وشكراً لله الذي لم يتخذ ولداً لعدم حاجته إليه، وهذا ردٌّ على مزاعم اليهود الذين قالوا عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله، وبعض العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ في الْمُلْكِ﴾ ولم يكن له شريك في ملكه للكون ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وليٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي ليس لله سبحانه ناصر يحميه من الذل ويتعزز به لأنه سبحانه عزيز بنفسه ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ وعظِّمه تعظيماً بليغاً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

من المراجع

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي
تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي
تفسير البيضاوي
تفسير القرآن العظيم لابن كثير
التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي
تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي
تفسير الكشاف للزمخشري
التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي
التفسير الوسيط، تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي
تفسير القرآن لمحمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق
جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
حاشية الصاوي على تفسير الجلالين
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم لمحمود الألوسي
زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج الجوزي
فتح القدير للشوكاني
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر
المفردات في غريب القرآن للأصفهاني

الفهرس

سورة الحجر

سورة النحل

سورة الإسراء

كلمة الشكر

وفي الختام أقدم شكري وامتناني

إلى أصحاب دار العلم للملايين الأفاضل لما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص

وإلى فضيلة القاضي المستشار الشيخ حسين يوسف غزال

وإلى فضيلة الشيخ محمد شريف خليل سكر

والدكتوره هدى سنو

لما قدموه لي من معونة وملاحظات قيّمة

وإلى جامعة بيروت العربية لما قدّمته لي مكتبة كلية الآداب فيها

من مراجع علمية وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه

وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم

المؤلف

تصميم الغلاف: علي شوربا

طباعة الكتاب: مطبعة علي موسى

تنضيد الأحرف والتركيب: المركز العربي للمطبوعات

هاتف: ٧٣٩٣٥٣ بيروت ـ لبنان

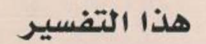
كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي
  باللغة الإنكليزية

روح القرآن

صدر منه حتى الآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يَس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف - مريم - طَه
- تفسير سُوَر: الحِجْر - النحل - الإسراء



- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين